

قواعد مهمة

يحتاج إليها المفسر

للإمام جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبى بكر
السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ

تقديم وتحقيق
الدكتور السيد إبراهيم الجميلى

رئيس التحرير
الدكتور على أحمد الخطيب

ة الأزهر المجانية .. ربيع الآخر ١٤١٤ هـ

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

قــواعد مهمــة
يحتــاج إليهــا المفســر

للإمام جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبى بكر
السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ

تقديم وتحقيق

الدكتور السيد إبراهيم الجميلى

رئيس التحرير

الد[redacted]على أحمد الخطيب

هدية مجلة الأزهر المجانية .. ربيع الآخر ١٤١٤ هـ

المقدمـــة

الحمد لله نستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، قد أدى الأمانة ، وبلَّغ الرسالة ، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .. أما بعد فلما أدركت الشيخوخة صرح الخلافة العباسية ، وقد أعملت فيها معاول الهدم والتوهين ـ صارت غرضاً وهدفاً ودريئة للمغيرين الطامعين الهمج من رعاع المغول ، الذى أغاروا على البلاد والعباد ، فكانوا سبباً مباشراً فى التعجيل بنهاية هذه الخلافة ، إذ أتوْا بنيانها من القواعد ، وانتشر شرهم المستطير هنا وهناك يأتى على اليابس والأخضر تخريباً وتدميراً حتى ترك الديار بلاقع عُطْلاً من الأهل إلا من البوم والغربان تنعب على أطلالها الدوارس ، ورسومها العافية .

كانت بغداد ـ حاضرة الملك وقتذاك ـ هى الغرض المستهدف من حملات المغول بقيادة «هولاكو» الذى عاث وجنوده فساداً فى الأرض ، وقد ألقى بالتراث الإنسانى بمكتبة بغداد العامرة فى نهر دجلة ، فضاع من جراء ذلك أثر نفيس ، فكانت خسارة البشرية لذلك جسيمة بحال .

هذه الحملات المحمومة الجائرة كانت سرطاناً قد كانف واعتور جسد الأمة الصابرة المحتسبة ينهش فيها ، ففرق أبناءها أيدى سبأ ،

وكسر شوكتهم ، وألان عريكتهم ، وصَدَّع شعبهم ، وثلم حدهم ، وفتق رتقهم ، وكسَّر قناتهم ، وفَتَّ فى ساعدهم .

لقد قتل الخليفة ، وأُهينت الرعية ، وأُذيل أبناؤها وحُرِّقت خزائن الكتب الموسوعية ، وتفاقم كَلَبُ المغيرين الأجلاف غلاظ الأكباد ، ولم يراعوا حرمة ولاقداسة ، حتى طارت القلوب فزعاً وفرقاً .

هذا هو حال المسلمين فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقد آذنت شمس الحضارة بالغروب . «فد لكت بَراح ، ودحضت المهاةُ»[1] ، وآذنت دولتها بالإدالة والزوال من مسرح الحياة ، وكذلك كان الحال فى الممالك والأمصار الإسلامية .

لقد سعى الخراب والتمزق إلى هذه الديار لما أن استولى المغول على فارس وبلاد العراق .. ولم تكن الأندلس بأحسن حالًا من هذه أو تلك ، فقد كانت فريسة وطعماً سائغاً للاستخذاء والاستكانة .

وكان طبيعياً أن يفطن المماليك فى مصر إلى خطورة ما حدث فى ديار الشام بخاصة ، وديار الإسلام بعامة ، وعرفوا ما آل إليه حال العلماء وطلاب العلم من الدارسين والباحثين ، ثم قدّروا خطورة ضياع مصادر العلم الرئيسية عند تلك الهجمات الشرسة المحمومة ، ففتحوا صدورهم للعلم وأهله ليستقطبوهم إلى مصر بلد الأزهر الشريف المعمور ، وهم بذلك مدركين خطورة الدور الذى تلعبه مصر وهى قلب العالم الإسلامى وكانت نظرتهم ثاقبة نافذة بحق ، فكان لهم بحق ما أرادوا ، وما عمدوا إليه .

(١) أى زالت شمس الحضارة ومالت إلى جهة الغروب

ذاع صيت المماليك واهتمامهم بالعلماء ، مع قيامهم بإنشاء المدارس والخوانق والرباطات ، وتوسعوا فى إنشاء خزائن الكتب ، وأوقفوا الأوقاف ، وحبسوا عليها الأموال والضياع وقفةً على العلم وأهله من طلبة ، ودارسين من مصر ومن غيرها .

ثم أسسوا المدارس الكاملية ، والصالحية ، والناصرية ، والظاهرية والمؤيدية وغيرها ..

ثم تأسست خزائن الكتب مثل الخزانة المحمودية ، والصاحبية والفاضلية ، والتى حفلت بالمصادر النادرة التى نجت من الضياع ، وأفلتت من الهلاك ، والتى كانت لنفاستها هدفا للدارسين على مختلف مستوياتهم وطبقاتهم .

ثم تبلجت الأنوار ، وكان لابد للّيل من آخر ، حيث تنفس الصبح ، وأنشق عموده ، بمولد ونشأة الإمام الحبر البحر الفهامة العلامة ، يتيم عصره وحُدَيّا دهره ومتقدم فرسان عصره ، جلال الدين عبدالرحمن ابن أبى بكر السيوطى ، فأنار بعلمه هاتيك المحلَوْلكات المطبقة ، وقد كان مرزوقا مُنعما عليه بحافظة قوية ، وبصر حاد ، وبصيرة نافذة ، وصبر على المكارة .

أخذ الإمام السيوطى من جلة الشيوخ فى عصره ، ونهل نتهم من أنهار معارفهم ، فارتوت قريحته الفذة من معينهم الذى لا ينضب ، فنشأ غصناً فيناناً مورقاً من دوحة وسرحة مستقيمة ، ممدودة الأفياء ، وارفة الظلال ، فاستثمر ذكاءه وقدراته الفذة العملاقة ، وصرف همته

إلى التأليف والتصنيف بعد أن شَبِعَ من مَعين الثقافات الشائعة فى عصره .

لقد جمع شتات العلوم والمعارف فى عصره فى دقة ووعى وعمق ، ثم إذا به يعمد إلى إعادة سبكها ورصفها ، وتقويمها بأسلوبه المتميز المتفرد ، وهذه المكتبة الثرية المأهولة التى تركها لنا خير شاهد على براعته وتفرده وتبريزه بين أضرابه من القدامى والمحدثين .

هذا العيلم غير المحدود ، وهذا الفيلق الكبير من هذا الرتل الهائل من الأعلام المرموقين كان نسيجا وحده إذ بلغ منزلة يعجز عنها كثير من الأسلاف ولا يمكن أن يدانيها أو يقاربها أحد من المتأخرين .

وإذا كان المثل المضروب ، أو ـ قل إن شئت ـ الحكمة السيارة تقول : العلم لا يُعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك» فإن السيوطى حَصَّل كثيراً من العلوم ، لأنه صرف همته كلها وعمره كله للتحصيل من جهة ، وكذلك أيضاً للتأليف من الجهة الأخرى بالمقابل ، يأخذ باليمنى ثم يعطى باليسرى ، حتى إنَّ كتبه تعتبر دوائر معارف جامعة ذوات جدَّة متجددة لا يخلق جديدها ، ولا يخبو نور عطائها ، وبذلها طرفة عين .

ترجم السيوطى لنفسه[1] ، كدأب كثير من متقدمى المؤلفين كلسان الدين بن الخطيب فى تاريخ غرناطة ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، وأبوشامة فى الروضتين . وتكلم على نشأته ، ورحلة تحصيله للعلم ، ونحن هنا نلخصها بتصرف من حسن المحاضرة .

(۱) حسن المحاضرة (۱٤٠/۳)

ترجمة الإمام السيوطى[1]

هو الإمام العلامة عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد الخضيرى السيوطى ، جلال الدين ، مؤرخ مفسر ، حافظ ، لغوى نحوى ، فقيه ، أصولى ، شافعى المذهب ، واسع الثقافة ، طويل الباع ، مطلق اليدين فى التأليف ، ذكى القريحة ، شديد الفطنة .

نشأ السيوطى يتيماً فى القاهرة ، ومات أبوه وهو فى عمر الزهور ناعم الأظفار ، وله خمس سنوات ، فلما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه وقد هجر الحياة والأحياء ، ونفض يديه من العالم المحيط به ، فألقى عصاه ، وضرب بجرانه[2] فى روضة المقياس على نيل مصر ، منزويا عن أصحابه ، مخليا به مع نفسه ومراجعه ، يؤلف ، ويصنف ، ويلخص ، ويجمع أشتات العلوم فى عصره ، والسابقة على عصره .

ولعل أجمل ما قيل فى هذا الفهامة العلامة ـ ما قاله هو وحكاه عن نفسه فى كتابه النفيس حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، وفيه يقول (بتصرف) :

---

(١): مصادر ومراجع الترجمة :
الكواكب السائرة (١/٢٦٦) وشذرات الذهب (٥١/٨) والضوء اللامع للسخاوى (٦٥/٤) وحسن المحاضرة (١٤٠/٢) ومعجم المطبوعات ليوسف إلياس سركيس (١٠٧٣)

(٢) ألقى عصاه ، وضرب بجرانه : كناية عن الاستقرار والثواء .

«و كان مولدى بعد المغرب ، ليلة الأحد ، مستهل رجب سنة تسع وأربعين ، وثمانمائة ، وحُمِلتُ فى حياة أبى إلى الشيخ محمد المجذوب ، رجل من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى ، فبارك علىّ» .

ثم يقول بعد ذلك :

«ونشأت يتيماً ، فحفظت القرآن ، ولى دون ثمانى سنين ، ثم حفظت العمدة ، ومنهاج الفقه ، والأصول ، وألفيه ابن مالك ، وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة أربع وستين ، فأخذت النحو والفقه عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة ، فرضى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحى ، الذى كان يقال إنه بلغ السن العالية ، وجاوز المائة بكثير ، والله أعلم بذلك ، قرأت عليه شرحه على المجموع ، وأجزت بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة» .

ثم يسترسل فى الحديث عن نفسه ، ليس بطراً ولا كبراً ولا استعلاءً ، وإنما حمداً لله وشكراً له وتحدثاً عن نعم الله عليه ، وافضاله ، وتكريمه له فقال :

«ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث ، والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب البلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، ودون هذه السبعة فى المعرفة : أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف ودونها الإنشاء ، والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب» أ.هـ. بتصرف .

ظل السيوطى ــ رحمه الله ــ مشتغلا بالعلم والفتيا والتدريس ، والتأليف والتصنيف ، وإبَّان عزلته فى منيل الروضة بالقاهرة هجر التدريس والفتيا حتى لا يعوقانه عن التأليف ، وألف فى ذلك كتابه الموسوم بـ «النفيس فى الاعتذار عن الفتيا والتدريس» .

وقد التقى الشعرانى بالسيوطى مرة واحدة قبيل وفاته ، وقد مات ــ رحمه الله ورضى عنه ــ فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وقد استمر مرضه سبعة أيام بورم شديد فى ذراعه اليسرى .

وقد مات عن إحدى وستين سنة ، وعشرة أشهر ، وثمانية عشر يوما ، وكان له مشهدٌ عظيمٌ ، ثم دُفِنَ بحوش قوصون خارج باب القرافة ، وقبره ظاهر وعليه قبة .

هذا هو السيوطى ، وهذه هى مكانته السامية فى ضمير تلاميذه وعارفى فضله ، عليه سحائب الرحمة ، وسقى قبره بشآبيب الرضوان .

وسلام عليه فى الصالحين

مؤلفات السيوطى

كان أمراً طبيعياً لرجل مثل السيوطى وهب عمره وحياته ، ووقف شبابه ونفسه للعلم ـ أن يُعلى الله تعالى شأنه ، ويرفع درجته ، ويحيى ذكره ، ويجعله مناراً للسالكين ، وقدوة للمهتدين ، ومثلا للصابرين المحتسبين ، المنافحين الذّابين عن بيضة الدين ، وعن حريم الإسلام تنوشه سهام المغموزين ، ولَدَد وغْر المصدورين الخراصين .

وقد ترتب على طول باعه فى التأليف وصبره عليه ، تلك الثروة الهائلة المشهودة من الكتب الكثيرة فى مختلف الفنون ، والتى أجاد سبكها ورصفها بعلمه الدافق الفياض ، فكانت ثماراً يوانع ، لكنها فتحت عليه أبوابا من الحقد الدفين ، انطلق لهيبه من أعداء التفوق ، وخصوم التبريز الذين نَعوْا عليه وقذعوه بالمنكرات ، ورموه بالقبائح والمكروهات واتهموه بالسرقة والتزييف والانتحال والتزوير ، والتدليس ، ولكن السيوطى لم يكن متهماً ولا ظنيناً وليس مثله أن يرتكب تلك العظائم ، وليس مثله يقارف مثل تلك المنكرات ، فقد كان فاضلا ورعاً وتقياً رشيداً ، رصيده من الخلق والنباهة ، وعلو النجم ، وسمو الهمة شاهد حق وصدق على براءته من حوب التدنى ، وطهارته من أرجاس الهوى ، ونقائه من زيغ الشبهات المدحوضة المرحوضة ، بأدلة الصدق ، وقرائن اليقين .

رحم الله شيخنا وإمامنا علامة عصره الشيخ السيوطى ونفعنا بعلمه وفضله .

ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أنه أَلَّف ثلاثمائة كتاب ، بيد أن المؤرخين أثبتوا له أكثر من هذا الرقم بكثير ، فلعل العدد الذى ذكره المؤرخون كان شاملًا تلك الرسائل الصغيرة ، وهى التى أهلمها هو من حسابه ، ومن عيون هذه المكتبة تلك الثمار اليوانع التى نوجز بعضاً منها ليقف القارىء الكريم على بعض جهاد هذا الرجل التقى النقى الرشيد :

١ ـ الإتقان فى علوم القرآن .

ويحتوى هذا الكتاب على دراسة جامعة دقيقة تقع فى جزئين كبيرين ، يحتوى زهاء ثمانين نوعاً من أنواع التفسير ، وكان فرغ ـ رحمه الله ـ من تأليفه سنة ثمان وسبعين وثمانمائة هـ . وقد طبع بهامشه كتاب إعجاز القرآن للباقلانى[١] .

ومن هذا الكتاب سلخنا وانتخلنا هذا الفصل الشائق الممتع ، وهو موضوع هذا الكتاب[٢] .

٢ ـ الأشباه والنظائر فى الفروع والأصول وهذا الكتاب فى أصول وفروع فقه الشافعية ، وليس صحيحاً ما ذكره يوسف إلياس سركيس من أنه (فى فروع الفقه الشافعى) وحسب ، ولكنه تناول علم الأصول أيضاً .

---

(١) الميمنية سنة ١٣١٧هـ ـ والأزهرية (١٣١٨) .

(٢) الوارد فى الإتقان (٢٤٤/١) طبعة الحلبى . الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م . تحت عنوان : «النوع الثانى والأربعون : فى قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها» .

٣ ـ الأشباه والنظائر النحْوية

وهو كتاب جامع لأصول النحو والتصريف ، وقد رتبه على سبعة فنون ، وقد طبع سلفاً فى مصر وبيروت ، وحيدر أباد الدكن .

٤ ـ تاريخ الخلفاء

تناول فيه السيوطى ترجمة الخلفاء وسيرة كل منهم ، وقد ابتدأ من أبى بكر حتى السلطان الأشرف قايتباى ، وطبع مراراً فى كلكتا سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ، ولاهور سنة سبعين وثمانمائة وألف ، ثم الميمنية سنة خمس وثلاثمائة وألف من الهجرة .

٥ ـ تفسير الجلالين

مع الجلال المحلى ـ رحمه الله ـ وقد سار فيه على درب الإيجاز والاختصار ، وقد طبع مرات ومرات بمصر وبيروت وكثير من بلدان العالم .

٦ ـ الجامع الكبير والجامع الصغير

وهما فى علم الحديث ، وكلاهما يشهد ببراعة السيوطى محدثاً وحافظاً محققاً لا ضريب له ، نادر المثال .

٧ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور

طبع بهامش القرآن الكريم مع «تنوير المقياس» لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وتلك جملة من أهم مؤلفاته الأخرى :

٨ ـ أسباب النزول .

٩ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة .

١٠ ـ التعقيبات على «الموضوعات لابن الجوزى» .

١١ ـ همع الهوامع ، وهو نفسه جمع الجوامع فى النحو .

١٢ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

١٣ ـ الخصائص الكبرى .

١٤ ـ شرح شواهد مغنى اللبيب .

١٥ ـ طبقات المفسرين .

١٦ ـ طبقات الحفاظ .

١٧ ـ اللالى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة .

١٨ ـ معترك الأقران فى إعجاز القرآن ، وفيه أيضا هذا الفصل موضوع كتابنا هذا[١]

بين يدى هذا الجزء

هذا الكتيب ـ كما ذكرنا سلفاً ـ عبارة عن فصل كامل فى «الإتقان» للسيوطى ، وهو النوع الثانى والأربعين : فى قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها (٢٤٤/١) طبعة الحلبى ـ الرابعة سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

وهو نفسه فصل كامل أيضا منقول بحذافيره من كتاب (معترك الأقران فى إعجاز القرآن) للإمام السيوطى أيضا . (٥٧٤/٣ ـ ٦٢٢) ، والذى أخرجه للنور العالم المحقق الكبير المرحوم الأستاذ على محمد البجاوى ، منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما تقريبا .

(١) معترك الأقران (٥٧٤/٣ ـ ٦٢٢) .

وقد رغبت مجلة الأزهر فى عصرها الذهبى الطيب فى إهداء المسلمين جملة من الهدايا القيمة من كنوز التفسير وأصوله ، وهى بهذا تضطلع بمهمتها الكريمة المنوطة بها على خير وجه وأتمه ، فأصدرت قبل ذلك كتاب الفوز الكبير فى أصول التفسير للإمام شاه ولى الله الدهلوى ـ رحمه الله ـ وقد صدر فى جزئين ، بداية من رجب سنة أربع وأربعمائة وألف من الهجرة ، ثم شهر شعبان من نفس السنة . ثم أصدرت «قانون التأويل» لأبى حامد الغزالى صاحب «إحياء علوم الدين» وصدر قانون التأويل هذا فى ربيع الآخر سنة ست وأربعمائة وألف .

ثم هى الآن ترغب فى إصدار هذه الفوائد المهمة والقواعد الضرورية التى لا غنى عنها للمفسر ، وهى مجموعة من القواعد والفوائد والتنبيهات النفيسة من إمام طويل الباع ، قديم الممارسة فى هذا المضمار ، ومجلة الأزهر بهذا العمل الطيب المبرور من جانبها تسهم فى إحياء التراث الدينى القيم ، فشكر الله لها هذا المسعى على يد العاملين فيها والعاملين عليها بقدر ما كتب للمؤلف من أجر وثواب فى ميزان حسناته ، ونسأل الله أن يجعل هذا العمل مبروراً خالصاً لوجهه الكريم إنه سبحانه وتعالى خير مأمول وأكرم مسئول ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

د. السيد الجميلى

قواعد مهمة يحتاج إليها المفسر

للإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر

السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ

قواعد مُهمّة يحتاج المفسّر إلى معرفتها

أولها : قاعدة فى الضمائر :

ألَّف ابن الأنبارى فى بيان الضمائر الواقعة فى القرآن مجلدين ، وأصْلُ وضع الضمائرِ للاختصار ، ولهذا قام قوله : ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) مقام خمسة وعشرين كلمة ، لو أتى بها مظهرة . وكذلك قوله : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾(٢) : قال مكى : ليس فى كتاب الله آية اشتملت على ضمائر أكثر منها ، فإنّ فيها خمسة وعشرين ضميرا ، ومِنْ ثَمَّ لا يعدلُ إلى المنفصل إلّا بعد تعذر المتصل ، بأن يقع فى الابتداء ، نحو : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(٣) أو بعد «ألا» : نحو : ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٤) .

● هو تاج اللغة محمد بن القاسم محمد بن بشار الأنبارى ، اللغوى النحوى ، صاحب كتاب (الأضداد فى اللغة) .

(١) الأحزاب : ٣٥

(٢) النور : ٣١

(٣) الفاتحة : ٥

(٤) يوسف : ٤٠

مرجع الضمير

لابد له من مرجع يعودُ إليه ملفوظا به سابقا مطابقا ، نحو : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾[1] . ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾[2] . ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾[3] . أو متضمنا له ، نحو : ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[4] فإنه عائد على العَدْل المتضمن له «اعدلوا» . « وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ .. »[5] ، أى المقسوم ، لدلالة القسمة عليه ، أو دالًا عليه بالالتزام ، نحو : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[6] ، أى القرآن ، لأن الإنزالُ يدلّ عليه التزاما . « فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ »[7] . فعُفىَ يستلزم عافيا أعيد عليه الهاء من «إليه» . أو متأخر لفظاً ورتبةً مطابقا ، نحو : « فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ »[8] . « وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ »[9] ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[10] . أو رتبة أيضا فى باب ضمير الشأن والقصة ، ونعم ، وبئس ، والتنازع ، أو

---

(١) هود : ٤٢ (٢) طه : ١٢١

(٣) النور : ٤٠ (٤) المائدة : ٨

(٥) النساء : ٨ (٦) القدر : ١

(٧) البقرة : ١٧٨ (٨) طه : ٦٧

(٩) القصص : ٧٨ (١٠) الرحمن : ٣٩

متأخرا دَالا بالالتزام ، نحو : « فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (١) » . ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ (٢) : أضمر الروح أو النفس ، لدلالة الحلقوم والتراق عليها . « حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ (٣) » ، أى الشمس لدلالة الحجاب عليها .

وقد يدلّ عليه السياق فيضمر ثِقة بفَهْم السامع ، نحو : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٤) ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ (٥) ، أى الدنيا . ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ﴾ (٦) أى الميت ، ولم يتقدم له ذكر .

وقد يعود على لفظ المذكور دون معناه ، نحو : «وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ» (٧) ، أى معمّر آخر .

وقد يعود على بعضي ما تقدم ، نحو : « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ .» إلى قوله : « فَإِن كُنَّ نِسَآءً » (٨) . «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ» (٩) بعد قوله : «والمطلقات» ، فإنه خاصٌّ بالرجعيات ، والعائد عليه عامٌّ فيهنَّ وفى غيرهن .

---

(١) الواقعة : ٨٣
(٢) القيامة : ٢٦
(٣) ص : ٣٢
(٤) الرحمن : ٢٦
(٥) فاطر : ٤٥
(٦) النساء : ١١
(٧) فاطر : ١١
(٨) النساء : ١١
(٩) البقرة : ٢٢٨

وقد يعود على لفظ شيء ، والمراد به الجنس من ذلك الشيء . قال الزمخشري كقوله : «إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ» ، أى بجنس الفقير والغنى ، لدلالة غنيا أو فقيرا على الجنسين ، ولو رجع إلى المتكلم به لوحده .

وقد يذكر شيئان ويعاد الضمير إلى أحدهما ، والغالب كونه الثاني ، نحو : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (١) ، فأعيد الضمير للصلاة ، وقيل للاستعانة المفهومة من «استعينوا» . و« جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ (٢) » أى القمر ، لأنه الذى يعلم به الشهور . «وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ (٣) ، أى يرضوهما ، فأفرد ، لأن داعى الرسول هو داعى العباد ، والمخاطب لهم شفاها ، ويلزم من رضاه رضا ربه تعالى .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين ، نحو : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (٤) .

وقد يجيء الضمير متصلا بشيء ، وهو لغيره ، نحو : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (٥) ، يعنى آدم ، ثم قال : «ثُمَّ

(١) البقرة ٤٥ . والصبر فى الآية هو الصوم على مافى تفسير الطبرى (١١/٢) والقرطبى (٣٧١/١) وهذا فى قول مجاهد ــ رضى الله عنه ، ولذلك يقال لشهر رمضان شهر الصبر ، ويقال للصائم صابر . انظر أيضا لسان العرب لابن منظور (١٠٨/٦) .

(٢) يونس : ٥

(٣) التوبة : ٦٢ (٤) الرحمن : ٢٢ (٥) المؤمنون : ١٢

جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾[1] ، فهذا[2] لولده ، لأن آدم لم يخلق من نطفة .

قلت : هذا هو باب الاستخدام ، وقد قدمناه ، ومنه : «لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[3]» ثم قال : « قَدْ سَأَلَهَا﴾[4]» ، أى أشياء أخر مفهومة من لفظ أشياء السابقة .

وقد يعود الضمير على ملابس ما هو له ، نحو : « إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[5] ، أى ضحى يومها لاضحى العشية نفسها ، لأنه لا ضحى لها .

وقد يعود على غير مشاهد محسوس ، والأصلُ خلافه ، نحو : « وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[6] فضمير له عائد على الأمر ، وهو إذ ذاك غير موجود ، لأنه لما كان سابقا فى علم الله كونه ، كان بمنزلة المشاهد الموجود .

قاعدة

[فى عود الضمير ●

الأصل عوده على أقرب مذكور ، ومن ثم أخر المفعول الأول فى قوله : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى

(١) المؤمنون : ١٣
(٢) فى الاتقان : فهذه
(٣) المائدة : ١٠١
(٤) المائدة : ١٠٢
(٥) النازعات : ٤٦
(٦) البقرة : ١١٧
● زيادة على أصل الكتاب (من المعترك)

﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ، ليعود الضمير عليه لقربه ، إلا أن يكون مضافا ومضافا إليه ، فالأصل عوده للمضاف ، لأنه المحدث عنه ، نحو : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (٢) .

وقد يعودُ على المضاف إليه ، نحو : ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِبًا﴾ (٣) . واختلف فى : ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ (٤) ، فمنهم من أعاده على المضاف ، ومنهم من أعاده إلى المضاف إليه .

قاعـــدة

الأصل توافق الضمائر فى المرجع حذرا من التشتّت ، ولهذا لما جوز بعضهم فى : ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ (٥) ، أن الضمير فى الثانى للتابوت وفى الأول لموسى عابه الزمخشرى (٦) ، وجعله تنافرا مخرجا للقرآن عن إعجازه ، فقال : والضمائر كلها راجعة الى موسى ، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التأبوت فيه هجنة لما تؤدى إليه من تنافر النظم هو أم إعجاز القرآن ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر .

---

(١) الأنعام : ١١٢ — (٢) إبراهيم : ٣٤

(٣) غافر : ٣٧ — (٤) الأنعام : ١٤٥

(٥) طه : ٣٩ — (٦) الكشاف ٢/٢٤

وقال[1] فى : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »[2] : الضمائر لله ، والمراد بتعزيره تعزيز دينه ورسله ، ومن فرق الضمائر فقد أبعد .

وقد يخرج عن هذا الأصل ، كما فى قوله : «ولا تستفت فيهم منهم أحدا »[3] ، فان ضمير «فيهم» لأصحاب الكهف ، «ومنهم» لليهود ، قاله ثعلب والمبرد . ومثله : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا »[4] : قال ابن عباس : ساء ظنا بقومه وضاق ذرعا بأضيافه . وقوله : « إِلَّا تَنصُرُوهُ ....»[5] الآية فيها اثنا عشر ضميراً كلها للنبى صلى الله عليه وسلم إلا ضمير : «عليه» فلصاحبه ، كما نقله السهيلى عن الأكثرين ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم تنزل عليه السكينة ، وضمير «جعل» له تعالى .

وقد يخالف بين الضمائر حذرا من التنافر ، نحو : «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ، الضمير للإثنى عشر ، ثم قال : « فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ »[6] : أتى بصيغة ضمير الجمع مخالفا لعوده على الأربعة .

---

(١) الكشاف : ٢ ـ ٣٧٣ (٢) الفتح : ٩

(٣) الكهف : ٢٢ (٤) هود : ٧٢٠

(٥) التوبة : ٤٠

(٦) التوبة ٣٦ . والأشهر الحرم هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . ورجب هو شهر الله الأصم . راجع أيضا تفسير الطبرى (٨٨/١٠)

ضمير الفصل

ضمير بصيغة المرفوع مطابق لما قبله ، تكلما وخطابا وغيبة ، إفرادا وغيره ، وإنما يقع بعد مبتدأ أو ما أصله المبتدأ وقبل خبرٍ كذلك ، اسما ، نحو : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾[2] ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[3] . « تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا ﴾[4] ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا ﴾[5] « هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[6] .

وجوز الأخفش وقوعه بين الحال وصاحبها ، وخرج عليه قراءة : « هن أطهر لكم » ــ بالفصل . وجوّز الجرجانى وقوعه قبل مضارع ، وجعل منه : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾[7] . وجعل منه أبوالبقاء : « وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ »[8]

ولا محل لضمير الفصل من الإعراب .

---

(١) البقرة : ٥ (٢) الصافات : ١٦٥

(٣) المزمل : ٢٠ (٤) المائدة : ١١٧

(٥) الكهف : ٣٩

(٦) هود : ٧٨ .

(٥٣/١٢) (٧) البروج : ١٣

(٨) فاطر : ١٠

وله ثلاث فوائد : الإعلام بأن ما بعده خبر لا تابع . والتأكيد ، ولهذا سماه الكوفيون دعامة ، لأنه يدعم به الكلام ، أى يقوى ويؤكد ، وبنى عليه بعضهم أنه لا يجمع بينه وبينه ، فلا يقال زيد نفسه هو الفاضل . والاختصاص .

وذكر الزمخشرى[1] الثلاثة فى : «وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[2] ، فقال : فائدته الدلالة على أن ما بعده خبر لا صفة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره .

ضمير الشأن والقصة

ويسمى ضمير المجهول ، قال فى المغنى : خالف القياس من خمسة أوجه : أحدها عوده على ما بعده لزوما ، إذ لا يجوز للجملة المفسّرة له أن تتقدم عليه ، ولا شىء منها .

والثانى أن مفسره لا يكون إلا جملة . والثالث أنه لا يتبع بتابع ، فلا يؤكد ، ولا يعطف عليه ، ولا يبدل منه . والرابع أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو ناسخ . والخامس أنه ملازم للافراد ، ومن أمثلته : «قل هو الله أحد»[3] «فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟»[4] . «فإنها لا تعمى الأبصار» . وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه ، بأن يذكر أولا مبهما ثم يفسر .

---

(١) الكشاف : ١ ـ ١٩ (٢) البقرة :

(٣) الإخلاص : ١ (٤) الأنبياء : ٩٧

تنبيـــه

قال ابن هشام[1] : متى أمكن الحمل على غير ضمير الشأن فلا ينبغي أن يحمل عليه ، ومن ثم ضعف قول الزمخشري[2] في : «إنه يراكم هو وقبيله»[3] : إن اسم «إن» ضمير الشأن ، والأولى كونه ضمير الشيطان ، ويؤيده قراءة : «وقبيله» بالنصب ، وضمير الشأن لا يعطف عليه .

قاعـــدة

جمع العاقلات لا يعود عليه الضمير غالبا إلا بصيغة الجمع ، سواء كان للقلة أو للكثرة ، نحو : «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ»[4] «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ»[5] وورد الإفراد في قوله : «وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ»[6] ، ولم يقل مطهرات .

وأما غير العاقل فالغالب في جمع الكثرة الإفراد ، وفي القلة الجمع . وقد اجتمعا في قوله : «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ

---

(١) مغني اللبيب لابن هشام ٢ ـ ١٠٠

(٢) الكشاف : ١ ـ ٣٢٤

(٣) الأعراف ٢٧

(٤) البقرة : ٢٣٣

(٥) البقرة : ٢٢٨

(٦) آل عمران : ١٥

شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ[1]﴾ إلى أن قال : «مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» ، فأعاد «منها» بصيغة إفراد على الشهور وهى للكثرة ، ثم قال : «فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم[1]﴾ فأعاده جمعا على «أربعةٌ حرم» وهى للقلة .

وذكر الفراء لهذه القاعدة سراً لطيفاً ، وهو أن المميّز مع جمع الكثرة ــ وهو ما زاد على العشرة ــ لما كان واحدا وحّد الضمير ، ومع القلة ، وهو العشرة ومادونها ، لمّا كان جمعا جمع الضمير .

قاعـــدة

إذا اجتمع فى الضمائر مراعاة اللفظ والمعنى بدىء باللفظ ثم بالمعنى ، هذا هو الجادة فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ومن الناس من يقول[2]﴾ ، ثم قال : «وما هم بمؤمنين[2]﴾ . أفرد أولا باعتبار اللفظ ، ثم جمع باعتبار المعنى . وكذا : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾[3] . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ[4] ﴾ . قال الشيخ علم الدين العراقى : ولم يجىء فى القرآن البداءة بالحمل على المعنى إلا فى موضع واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا[5] ﴾ ، فأنث خالصة حملا على معنى ما ثم راعى اللفظ فذكر فقال : «ومحرم» .

---

(١) التوبة : ٣٦ (٢) البقرة : ٨

(٣) الأنعام : ٢٥ (٤) التوبة : ٤٩

(٥) الأنعام : ١٣٩

قال ابن الحاجب فى أماليه : إذا حمل على اللفظ جاز الحمل بعده على المعنى ، وإذا حمل على المعنى ضعف الحمل بعده على اللفظ ، لأن المعنى أقوى ، فلا يبعد الرجوع إليه بعد اعتبار اللفظ ، ويضعف بعد اعتبار المعنى القوى الرجوع إلى الأضعف . وقال ابن جنى فى المحتسب : لا تجوز مراجعة اللفظ بعد انصرافه عنه إلى المعنى ، وأورد عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ..(1)﴾ إلى قوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا(2)﴾ ، فقد راجع اللفظ بعد الانصراف عنه إلى المعنى .

وقال محمود بن حمزة فى كتاب العجائب : ذهب بعض النحويين إلى أنه لا يجوز الحمل على اللفظ بعد الحمل على المعني ، وقد جاء فى القرآن بخلاف ذلك ، وهو قوله : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا(3)﴾ .

وقال ابن خالويه فى كتاب «ليس» : القاعدة فى «من» ونحوه الرجوع من اللفظ إلى المعنى ، ومن الواحد إلى الجمع ، ومن المذكر

(1) الزخرف : ٣٦ يعشو : يذهب بصره فيصير ضريرا كفيفاً ، قال أبوعبيدة يعشو أى يظلم بصره . أنظر القرطبى (٩٠/١٦) ويوافقه على ذلك الأخفش أيضا . وراجع أيضا المعنى فى لسان ابن منظور (٢٨٧/١٩)

(2) الزخرف : ٣٨ (3) الطلاق : ١١

إلى المؤنث ، نحو : ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا﴾[1] و﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾[2] إلى قوله : ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ، أجمع على هذا النحويون .

قال : وليس فى كلام العرب ولا فى شىء من العربية الرجوع من المعنى إلى إلى اللفظ ، إلا فى حرف واحد استخرجه ابن مجاهد ، وهو قوله تعالى : ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات ...﴾[3] الآية : وحد فى «يؤمن» و«يعمل» و«يدخله» ، وجمع فى قوله : ﴿خالدين﴾ ، ثم وحّد فى قوله : ﴿أحسن الله له رزقا﴾ ، فرجع بعد الجمع إلى التوحيد .

---

(١) الأحزاب : ٣١ (٢) البقرة : ١١٢

(٣) الطلاق : ١١

قاعـــدة

التذكير والتأنيث

التأنيث ضربان : حقيقى وغيره ، فالحقيقى لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالبا إلا إن وقع فصل ، وكلما كثر الفصل حسن الحذف ، والإثبات مع الحقيقى أولى ، مالم يكن جمعا . وأما غير الحقيقى فالحذف فيه مع الفصل أحسن ، نحو : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾(١) . ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾(٢) فإن كثر الفصل ازداد حسنا ، نحو : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾(٣) والإثبات أيضا حسن ، نحو : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ... ﴾(٤) ، فجمع بينهما فى سورة هود .

وأشار بعضهم إلى ترجيح الحذف ، واستدل عليه بأن الله قدمه على الإثبات حيث جمع بينهما .

ويجوز الحذف أيضا مع عدم الفصل حيث الإسناد إلى ظاهره ، فإن كان إلى ضميره امتنع . وحيث وقع ضمير أو إشارة بين مبتدأ وخبر أحدهما مذكر والآخر مؤنث ، جاز فى الضمير والإشارة التذكير

---

(١) البقرة : ٢٧٥ (٢) آل عمران : ١٣

(٣) هود : ٦٧ (٤) هود : ٩٤

والتأنيث ، كقوله تعالى : ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾(١)؛ فذكَّر والخبر مؤنث لتقدم السد وهو مذكر . وقوله تعالى : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾(٢)؛ ذكر والمشار إليه اليد والعصا ، وهما مؤنثان لتذكير الخبر وكل أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير والتأنيث حملا على الجماعة ، كقوله : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٣) . و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾(٤) ، ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾(٥). وقرىء : تشابهت . ﴿السماء منفطر به﴾(٦) . ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾(٧). وجعل منه بعضهم : ﴿جاءتها ريح عاصف﴾(٨)؛ ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾(٩) .

وقد سئل : ما الفرق بين قوله : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾(١٠) . وقوله : ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾(١١)؟

وأجيب بأن ذلك لوجهين : لفظي ، وهو كثرة حروف الفاصل في الثاني ، والحذف مع كثرة الحواجز أكثر .

---

(١) الكهف : ٩٨

(٢) القصص : ٣٢ برهانان : حجتان ، مثنى برهان

(٣) الحاقة : ٧

(٤) القمر : ٢٠

(٥) البقرة : ٧٠

(٦) المزمل : ١٨

(٧) الانفطار : ١

(٨) يونس : ٢٢

(٩) الأنبياء : ٨١

(١٠) النحل : ٣٦

(١١) الأعراف : ٣٠

ومعنوى ، وهو أن «من» فى قوله : «من حقت» راجعة الى الجماعة ، وهى مؤنثة لفظا ، بدليل : «ولقد بعثنا» فى كل أمة رسولا ، ثم قال : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ : أى من تلك الأمم ، ولو قال : ضلت لتعينت التاء ، والكلامان واحد ، وإذا كان معناهما واحدا كان إثبات التاء أحسن من تركها ، لأنها ثابتة فيما هو من معناه .

وأما : «فريقا هدى ...» الآية فالفريق مذكر ، ولو قال : فريقا ضلوا لكان بغير تاء ، وقوله : «حق عليهم الضلالة» فى معناه فجاء بغير تاءْ ، وهذا أسلوب لطيف من أساليب العرب أن يدعوا حكم اللفظ الواجب فى قياس لغتهم إذا كان فى مرتبة كلمة لا يجب لها ذلك الحكم .

قاعـــدة

فى التعريف والتنكير

أعلم أن لكل منهما مقاما لا يليق بالآخر . أما التنكير فله أسباب : أحدها ــ إرادة الوحدة ، نحو : ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[1] ، أى رجل واحد . و« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾[2] .

(١) القصص : ٢٠.

(٢) الزمر : ٢٩ . متشاكسون : مختلفون يتنازعون فيه ، يقال : رجل شكس إذا كان متعب الخلق (راجع القرطبى ٣٥٢/١٥ ، ٣٥٣) والقرطبى (١٣٦/٢٣ ، ١٣٧) وابن منظور (٤١٨/٧) .

الثانى ـ إرادة النوع ، نحو : ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[1] ، أى نوع من الذكر ، « وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ »[2] ﴾ ، أى نوع غريب من الغشاوة لا يتعارفه الناس ، بحيث غطى مالا يغطيه شىء من الغشاوات . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[3] ، أى نوع منها ، وهو الازدياد فى المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضى ولا على الحاضر . ويحتمل الوحدة والنوعية معا قوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ »[4] ، أى كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء ، وكل فردٍ من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف .

الثالث ـ التعظيم ، بمعنى أنه أعظم من أن يعين ويعرف ، نحو : « فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ[5] ﴾ . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[6] . « وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾[7] . « سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[8] . « أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ[9] ﴾ .

الرابع ـ التكثير ، نحو : « أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا[10] ﴾ ، أى وافرًا جزيلاً ويحتمل التعظيم والتكثير معا : « وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[11] ، أى رسل عظام ذوو عدد كثير .

---

(١) ص : ٤٩ — (٢) البقرة : ٧

(٣) البقرة : ٩٦ — (٤) النور : ٤٥

(٥) البقرة : ٢٧٩ — (٦) البقرة : ١٠

(٧) مريم : ١٥

(٨) الصافات : ١٠٩ — (٩) البقرة : ٢٥

(١٠) الشعراء : ٤١ — (١١) فاطر : ٤

الخامس – التحقير ، بمعنى انحطاط شأنه إلى حد لايمكن أن يعرف ، نحو : ﴿إن نظن إلا ظنا﴾[1] ، أى ظنا حقيرا لا يعبأ به ، وإلا اتبعوه ، لأن ذلك ديدنهم ، بدليل : ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾[2] . ﴿من أى شىء خلقه﴾[3] ، أى من شىء حقير مهين ، ثم بينه بقوله : ﴿من نطفة خلقه﴾[4] .

السادس – التقليل ، نحو ﴿ورضوان من الله أكبر﴾[5] ، أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات ، لأن رأس كل سعادة :

قليل[6] منك يكفينى ولكن

قليلك لا يقال له قليل

وجعل منه الزمخشرى[7] : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا﴾[8] ، أى بعض ليل .

---

(١) الجاثية : ٣٢ وقد يكون الظن بمعنى العلم ، لقوله تعالى : «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها» الكهف : ٥٢ . أى علموا والله تعالى أعلم .

(٢) الأنعام : ١١٦

(٣) عبس : ١٨

(٤) عبس : ١٩

(٥) التوبة : ٧٢

(٦) الإتقان : ٢ – ٢٩٢

(٧) الكشاف : ١ – ٥٤٠

(٨) الإسراء

وأورد عليه أن التقليل رد الجنس إلى فردٍ من أفراده ، لا تنقيص فرد إلى جزء من أجزائه . وأجاب فى عروس الأفراح بأنا لا نسلم أن الليل حقيقة فى جميع الليلة ، بل كل جزء من أجزائها يسمى ليلا .

وعدّ السكاكى من الأسباب ألا يعرف من حقيقته إلا ذلك ، وجعل منه أن تقصد التجاهل وأنك لا تعرف شخصه ، كقوله : هل لكم فى حيوان على صورة إنسان يعمل كذا ؟ وعليه من تجاهل الكفار : « ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾(١) » ، كأنهم لا يعرفونه .

وعدّ غيره منها قصد العموم بأن كانت فى سياق النفى ، نحو : « ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٢) » « ﴿فَلَا رَفَثَ﴾(٣) » ... الآية أو الشرط ، نحو : « ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾(٤) » ، والامتنان ، نحو : « ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(٥) » .

وأما التعريف فله أسباب ، فبالإضمار ، لأن المقام مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة .

وبالعَلَمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ،

---

(١) سبأ : ٧
(٢) البقرة : ٢
(٣) البقرة ١٩٧
(٤) التوبة : ٦
(٥) الفرقان : ٤٨

نحو : « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ »[1] . « مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ »[2] أو لتعظيم أو إهانة حيث علمه يقتضى ذلك ، فمن التعظيم ذكر يعقوب بلقبه إسرائيل لما فيه من المدح والتعظيم ، ولكونه صفوة الله ، أو سرى الله ، كما قدمنا فى حرف الألف .

ومن الإهانة قوله : تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ »[3] ، وفيه أيضا نكتة أخرى ، وهى الكناية به عن كونه جهنميا .

وبالإشارة لتمييزه أكمل تمييز باحضاره فى ذهن السامع حسا ، نحو : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[4] .

وللتعريض بغباوة السامع ، حتى إنه لا يتميز له الشيء إلا بإشارة الحس ، وهذه الآية تصلح لذلك .

ولبيان حالة فى القرب والبعد ، فيؤتى بالأول بنحو هذا ، وفى الثانى بنحو ذلك وأولئك . ولقصد تحقيره بالقرب : «أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ »[5] . « أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا »[6] . « مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا »[7] ، وكقوله تعالى : « وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ »[8]

---

(١) الاخلاص : ١ (٢) الفتح : ٢٩

(٣) اللهب : ١ وتبت : خسرت ، لأن التباب هو الخسران ، راجع التفسير الكبير للرازى (٥٤٧/٨) وجامع البيان للطبرى (٢١٧/٣٠) والقرطبى (٢٣٥/٢٠)

(٤) لقمان : ١١ (٥) الأنبياء : ٣٦

(٦) الفرقان : ٤١ (٧) البقرة : ٢٦

(٨) العنكبوت : ٦٤

ولقصد تعظيمه بالبعد ، نحو ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]، ذهابا إلى بعد درجته .

وللتنبيه بعد ذكر المشار إليه بأوصاف قبله على أنه جدير بما يرد بعده من أجلها ، نحو : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وبالموصولة لكراهة ذكره بخاص اسمه ، إما ستراً عليه ، أو إهانة ، أو لغير ذلك ، فيؤتى بالذى ونحوها موصلة بما صدر منه من فعل أو قول ، نحو : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾[3]. ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾[4].

وقد تكون لإرادة العموم ، نحو ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ...﴾[5] الآية .

وللاختصار ، نحو : ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾[6]، أى قولهم إنه آدر ، إذ لو عدد أسماء القائلين لطال ، وليس للعموم ، لأن بنى إسرائيل كلهم لم يقولوا فى حقه ذلك .

---

(١) البقرة: ٢

(٢) البقرة : ٥ والمفلح هو الفائز بالمطلوب كأنه قد إنفتحت له وجوه الظفر . راجع البيضاوى (١/١٠) وأصل الفلاح : البقاء ، على مافى الطبرى (١/٢٥٠) وانظر تفسير القرطبى (١/١٨٢) ومجاز القرآن لأبى عبيدة (٣٠)

(٣) الأحقاف : ١٧ (٤) يوسف : ٢٣ (٥) غافر : ٦٠

(٦) الأحزاب : ٦٩

وبالألف واللام إشارة إلى معهود خارجى أو ذهنى أو حضورى . وللاستغراق حقيقة أو مجازا ، أو لتعريف الماهية . وقد مرت أمثلتها فى حروف المعجم .

وبالإضافة لكونها أخصر طريق .

ولتعظيم المضاف ، نحو : «﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1] . ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[2] ، أى الأصفياء فى الآيتين ، كما قال ابن عباس وغيره .

ولقصد العموم نحو : «﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[3] ، أى كل أمر لله .

فائـــدة

سئلت عن الحكمة فى تنكير «أحد» وتعريف الصمد فى قوله تعالى : «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[4] . وألفت فى جوابه تأليفا مودعا فى الفتاوى ، وحاصله أن فى ذلك أجوبة :

أحدها ــ أنه نكّر للتعظيم ، والإشارة إلى أنَّ مدلوله ــ وهو الذات المقدسة ــ غير ممكن تعريفها والإحاطة بها .

---

(١) ســـورة الحجـــر ٤٢

(٢) الزمر : ٧ (٣) النور : ٦٣

(٤) الإخلاص : ١ ، ٢ . راجع تفسير القرطبى (٢٤٤/٢٠) والطبرى (٢٢٠/٣٠) والدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى (٤١٠/٦) والبحر المحيط لأبى حيان (٥٢٧/٨)

الثانى ـ أنه لا يجوز إدخال «أل» ، كغير وكل وبعض ، وهو فاسد ، فقد قرىء : «قل هو الله الواحد الصمد» حكى هذه القراءة أبوحاتم فى كتاب الزينة عن جعفر بن محمد .

الثالث ـ مما خطر لى أن هو مبتدأ والله خبر ، وكلاهما معرفة ، فاقتضى الحصر ، فعرف الجزآن فى : الله الصمد ، لإفادة الحصر ليطابق الجملة الأولى ، واستغنى عن تعريف أحد لإفادة الحصر دونه ، فأتى به على أصله من التنكير ، على أنه خبر ثان وإن جعل الاسم الكريم مبتدأ و«أحد» خبر ففيه من ضمير الشأن ما فيه من التفخيم والتعظيم ، فأتى بالجملة الثانية على نحو الأولى ، بتعريف الجزأين للحصر تفخيما وتعظيما .

قاعدة أخرى
تتعلق بالتعريف والتنكير

إذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال : لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكرة والثانى معرفة ، أو بالعكس ، فإن كانا معرفتين فالثانى هو الأول غالبا ، دلالة على المعهود الذى هو الأصل فى اللام أو الإضافة ، نحو : «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ(١)» «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ . أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ(٢)» . «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ

(١) الفاتحة : ٦ ، ٧ (٢) الزمر : ٢ ، ٣

﴿لَمُحْضَرُونَ﴾[1] . ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] . ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾[3] . وإن كانا نكرتين فالثانى غَيْرُ الأول غالبا ، وإلا لكان المناسب هو التعريف بناء على كونه معهودا سابقاً ، نحو : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[4] ، فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثانى الطفولية ، وبالثالث الشيخوخة .

وقال ابن الحاجب ـ فى قوله تعالى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[5] الفائدة فى إعادة لفظ الشهر الإعلام بمقدار زمن الغدو وزمن الرواح ، والألفاظ التى تأتى مبينة للمقادير لا يحسنُ فيها الإضمار ، ولو أُضمر فالضمير إنما يكون لما تقدم باعتبار خصوصيته ، فإذا لم يكن له وجب العدولُ عن المضمر إلى الظاهر . وقد اجتمع القسمان فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[6] ، فالعسر الثانى هو الأول ، واليُسر الثانى غير الأول ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الآية : لن يغلب عُسر يُسرين .

وإن كان الأول نكرة والثانى معرفة فالثانى هو الأول حملا على العهد ، نحو : ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ

(١) الصافات : ١٥٨ لمحضرون : أى لمحضرون النار .
(٢) غافر : ٩
(٣) غافر : ٣٦ ، ٣٧
(٤) الروم : ٥٤
(٥) سبأ : ١٢
(٦) الشرح : ٥ ، ٦

﴿ ٱلرَّسُولَ[1] ﴾ . ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ[2] ﴾ .
﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ • صِرَٰطِ ٱللَّهِ[3] ﴾ . ﴿ مِّن سَبِيلٍ • إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾[4] .

وإن كان الأول معرفة والثانى نكرة فلا يُطلق القول ، بل يتوقف على القرائن ، فتارة تقوم قرينة على التغاير ، نحو : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ[5] ﴾ . ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ[6] ﴾ . ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى ﴾[7] . قال الزمخشرى[8] . المراد بالهدى جميع ما آتاه الله من الدين والمعجزات والشرائع ، وهدى الإرشاد .

وتارة تقوم قرينة على الاتحاد : نحو : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ . (سورة الزمر)

---

(١) المزمل : ١٥ ، ١٦ — (٢) النور : ٣٥
(٣) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ — (٤) الشورى : ٤١ ، ٤٢
(٥) الروم : ٥٥ — (٦) النساء : ١٥٣
(٧) غافر : ٥٣ ، ٥٤ — (٨) الكشاف : ٢ ـ ٣١٩

تنبيـــه

قال الشيخ بهاء الدين فى عروس الأفراح وغيره : الظاهر أن هذه القاعدة غَيْرُ محرَّرة ، فإنها منتَقَضةٌ بآيات كثيرة ، منها فى القسم الأول : «هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ[1]» ، فإنهما معرفتان . والثانى غير الأول ، فإن الأول العمل والثانى الثواب. «أن النفس بالنفس[2]» ، أى القاتلة بالمقتولة . وكذا سائر الآيات : «الحرَّ بالحُـرَّ ..[3]» الآية . «هَـلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ..[4]» ، ثم قال : «إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة» ، فإن الأول آدم ، والثانى ولده . «وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتـاب يؤمنـون به[5]» . فإن الأول القرآن ، والثانى التوراة والإنجيل .

ومنها فى القسم الثانى : «وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إلـه[6]» «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ[7]» ، فإن الثانى فيهما هو الأول وهما نكرتان .

---

(١) الرحمن : ٦٠
(٢) المائدة : ٤٥
(٣) البقرة : ١٧٨
(٤) الإنسان : ١ ، ٢
(٥) العنكبوت : ٤٧
(٦) الزخرف : ٨٤
(٧) البقرة ٢١٧

ومنها فى القسم الثالث : «أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ»[1] «وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ»[2] «وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ»[3] «لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ»[4] «زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ»[5] . «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا»[6] . فإن الثانى فيهما غير الأول .

وأقول لا انتقاض بشىء من ذلك عند التأمل ، فإن اللام فى الإحسان للجنس فيما يظهر ، وحينئذ يكون فى المعنى كالنكرة ، وكذا آية النفس والحر ، بخلاف آية العسر ، فإن «أل» فيها إما للعهد أو للاستغراق كما يفيد الحديث ، وكذا آية الظن لا نسلم أنّ الثانى فيها غير الأول ، بل هو عينه قطعا ، إذ ليس كل ظن مذموما ، كيف وأحكام الشريعة ظنية ، وكذا آية الصلح لا مانع من أن يكون المراد منها الصلح المذكور ، وهو الذى بين الزوجين . واستحباب الصلح فى سائر الأمور ، ويكون مأخوذا من السنة أو من الآية بطريق القياس ، بل لا يجوز القول بعموم الآية ، وأن كلّ صلح خير ، لأنّ ما أحل حراما من الصلح ، أو حرم حلالا فهو ممنوع ، وكذا آية القتال ليس الثانى فيها عَيْن الأول بلا شك ، لأن المراد بالأول المسئول عن القتال الذى وقع فى سرية ابن الحضرمى سنة اثنين من الهجرة ، لأنه سببُ نزول الآية . والمراد بالثانى جنس القتال لا ذاك بعينه .

---

(١) النساء : ١٢٨ (٢) هود : ٣
(٣) هود : ٥٢ (٤) الفتح : ٤
(٥) النحل : ٨٨ (٦) يونس : ٣٦

وأما آية : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾(١) فقد أجاب عنها الطيبى بأنها من باب التكرير لإفادة أمْر زائد ، بدليل تكرير ذكر الرب فيما قبله من قوله : ﴿ . رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ ﴾(٢) ووجهُه الإطناب فى تنزيه سبحانه عن نِسبةِ الولد إليه . وشرطُ القاعدة ألَّا يقصد التكرير .

وقد ذكر الشيخ بهاء الدين فى آخر كلامه : أن المراد بذكر الاسم مرتين كونه مذكورا فى كلامٍ واحد أو كلامين بينهما تواصل بأن يكون أحدُهما معطوفاً على الآخر ، أولَهُ به تعلُّق ظاهر وتناسب واضح ، وأن يكون من متكلم واحد ، ودفع بذلك إيراد آية القتال ؛ لأن الأول فيها محكىّ هنا عن قول السائل ، والثانى محكىّ من كلام النبى ﷺ .

---

(١) الزخرف : ٨٤ (٢) الزخرف : ٨٢

قاعـــدة

فى الإفراد والجمع

من ذلك السماء والأرض : حيث وقع فى القرآن ذِكر الأرض فإنها مفردة ولم تجمَعْ بخلاف السموات ، لثقل جمعها وهو أرَضون ؛ ولهذا لما أُرِيد ذِكْر جميع الأرض قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾(١) . وأما السماء فذُكرت تارةً بصيغة الجمع ، وتارةً بصيغة الإفراد لنُكتةٍ تليقُ بذلك المحلّ ، كما أوضحتُه فى أسرار التنزيل . والحاصل أنه حيث أُريد العدد أُتِيَ بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة ؛ نحو : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾(٢) ؛ أى جميع سكانها على كثرتهم ، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(٣) ؛ أى كلّ واحدة على اختلاف عددها . ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾(٤) ؛ إذ المراد نَفْىُ علم الغيب عن كلّ مَنْ هو فى واحدة ، واحدة من السموات .

وحيث أُريد الجهة أتى بصيغة الإفراد ، نحو : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾(٥) . ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾(٦) ؛ أى من فوقكم .

---

(١) الطلاق : ١٢ (٢) الصف : ١

(٣) الإسراء : ٤٤ (٤) النمل : ٦٥

(٥) الذاريات : ٢٢ (٦) الملك : ١٦

ومن ذلك الريح حيث ذكرت مجموعة ومفردة ، فحيث ذُكِرت في سياقِ الرحمة جُمعت ، أو في سياق العذاب أُفردت .

وأخرج ابنُ أبي حاتم وغيره عن أُبيّ بن كعب ، قال : كلُّ شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكلّ شيء فيه من الريح فهو عذاب .

ولهذا ورد في الحديث : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها رِيحاً . وذكر في حكمةِ ذلك أنَّ رِياحَ الرحمة مختلفة الصفات والمهبَّات والمنافع ، وإذا هاجَتْ منها رِيح أُثير لها من مقابلها ما يكسر سَوْرتها ، فينشأ من بينهما ريحٌ لطيفة تنفَعُ الحيوان والنبات ، فكانت في الرحمة رياحاً ، وأما في العذاب فإنها تأتي من وَجْهٍ واحد ، ولا معارض لها ولا دافع .

وقد خرَج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس : ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(١) ؛ وذلك لوجهين : لفظي ، وهو المقابلة بقوله : ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(١) . ورُبَّ شيء يجوزُ في المقابلة ، ولا يجوز استقلالا ؛ نحو : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾(٢) .

ومعنوي ؛ وهو أنَّ تمامَ الرحمةِ هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ؛ فإنَّ السفينةَ لا تسير إلا بريح واحدة من وجْهٍ واحد ، فإذا اختلفت عليها الرياح كان سبب الهلاك ، والمطلوب هنا ريح واحدةٍ ، ولهذا أكّد هذا المعنى بوصفها بالطيب ؛ وعلى ذلك أيضاً جرى قوله :

---

(١) يونس : ٢٢ راجع الطبري (٧٦/١١) (٢) آل عمران : ٥٤

﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾[1] . وقال ابن المنير : إنه على القاعدة لأنَّ سكونَ الريح عذابٌ وشدة على أصحاب السفن .

ومن ذلك إفراد النور وجَمْعُ الظلمات ، وإفراد سبيل الحق وجمع سبيل الباطل ، في قوله : ﴿ولا تتَّبِعوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سَبِيلِهِ﴾[2] ؛ لأنَّ طريق الحقّ واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة ، والظلمات بمنزلة طرق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ؛ بل هما هما ؛ ولهذا وحّد وَلِيّ المؤمنين ، وجمع أولياءَ الكفار لتعدّدهم في قوله : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾[3] ... الآية .

ومن ذلك إفراد النار حيث وقعت والجنة حيث وقعت مجموعة ومفردة ؛ لأن الجنان مختلفة الأنواع ، فحَسُنَ جمعها ، والنار مادة واحدة ، ولأن الجنة رحمة والنار عذاب ، فناسب جَمْعَ الأولى وإفراد الثانية على حدّ الرياح والريح .

ومن ذلك إفراد السمع وجمع البَصر ؛ لأنّ السمْعَ غلب عليه المصدرية ، فأفرد ، بخلاف البَصر ، فإنه اشتهر في الجارحة ، ولأن متعلّق السمع الأصوات ، وهي حقيقة واحدة ، ومتعلق البصر الألوان والأكوان وهي حقائق مختلفة ، فأشار في كل منهما إلى متعلقه .

(١) الشورى : ٣٣ (٢) الأنعام : ١٥٣

(٣) البقرة : ٢٥٧ أي يخرجهم من ظلمات الشرك والريب إلى نور اليقين والتوحيد .

ومن ذلك إفرادُ الصديق وجمع الشافعين فى قوله : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1] . وحكمتُهُ كثرَةُ الشفعاءِ فى العادة وقلَّةُ الصديق .

قال الزمخشرى[2] : ألَا ترى أنَّ الرجل إذا امتُحن بإرهاقِ ظالم نهضت جماعةٌ وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة . وأما الصديق فأعزُّ من بَيْضِ الأَنُوق .

ومن ذلك الألباب لم يقع إلا مجموعاً ، لأن مفرده ثقيل لفظاً .

• ومن ذلك مجىء المشرق والمغرب بالإفراد وبالتثنية وبالجمع ؛ فحيث أُفردا ، فاعتباراً للجهة ، وحيث ثُنِّيا فاعتباراً لمشرق الصيف والشتاء ومغربهما ، وحيث جُمِعَا فاعتبار التعدُّد المطالع فى كل فصل من فصول السنة..

وأما وَجْهُ اختصاصِ كلّ موضع بما وقع فيه ، ففى سورة الرحمن ورد[3] بالتثنية ؛ لأنَّ سياقَ السورة سياق المزدوجين ، فإنه سبحانه ذكرَ أولا نَوْعَى الإيجاد وهما الخَلق والتعليم ، ثم ذكر سراجى العالم : الشمس والقمر ، ثم نَوْعى النبات : ما كان على ساق ومالا ساق له ، وهما النَّجم والشَّجَر ، ثم نوعى السماء والأرض ، ثم نوعى العدل والظلم ، ثم نَوْعى الخارج من الأرض وهما الحبوب والرياحين ، ثم

(١) الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١ (٢) الكشاف : ٢ ــ ١٢٧

(٣) فى الاتقان : وقع

نوعى المكلّفين وهما الإنس والجان ، ثم نوعى البحر : العذب والملح ، فلهذا حَسُن تثنيةُ المشرق والمغرب فى هذه السورة وجمعا فى قوله : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾(١) . وفى سورة الصافات(٢) للدلالة على سعة القدرة والعظمة .

حيث ورد البارّ مجموعاً فى صفة الآدميين قيل : أبرار ، وفى صفة الملائكة قيل بَرَرَة ؛ ذكره الراغب ، ووجّهه بأن الثانى أبلغ ؛ لأنه جَمْع بارّ ، وهو أبلغُ من « بر » مفرد الأول .

وحيث ورد الأخ مجموعا فى النَّسَب قيل إخوة ، وفى الصداقة قيل إخوان ؛ قاله ابن فارس وغيره . وأُورد عليه فى الصداقة : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(٣) ، وفى النسب : ﴿ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾(٤) .

فائـــدة

ألَّف أبو الحسن الأخفش كتاباً فى الإفراد والجمع فى القرآن ذكر فيه جميع ماوقع فى القرآن مفرداً ، ومفرد ماوقع فيه جمعا ، وأكثره من الواضحات ؛ وهذه أمثلةٌ مِنْ خَفِيّ ذلك :

(١) المعارج : ٤٠

(٢) الصافات :﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾

(٣) الحجرات : ١٠ (٤) النور : ٣١

المَنُّ جمع لا واحد له . والسَّلوَى لم يُسمع له بواحد . النصارى قيل جمع نصرانى ، وقيل نصير كنديم ، وقَبيل . العَوَان جمعه عُون . الهُدَى لا واحدَ له . الإعصار جمعه أعاصير . الأنصار واحده نَصير ، كشريف وأشراف . الأَزلام واحدها زلَم ، ويقال زُلَم ، بالضم . مِدْرار جمعه مَدَارير . أساطير واحدها أسطورة ، وقيل أسطار جمع سَطْر . الصُّور قيل جمع صورة ، وقيل واحد الأصوار . فُرَادى جمع أفراد ، جمع فرد . وقِنْوان جمع قِنْو . وصِنْوان جمع صِنْو ، وليس فى القرآن جمع ومثنى بصيغةٍ واحدة إلا هذان ولفظ ثالث لم يقع فى القرآن ، قاله ابن خالويه فى كتابه ليس : الحوايا جمع حاوية ، وقيل حاوياء . نشر جمع نَشُور . عِضين وعِزين جمع عِضة وعِزة . المثانى جمع مثنى تارة جمعها تارات ، وتِيَر . أَيقاظ جمع يقظ . الأرائك جمع أَريكة . سرىّ جمعه سِريان ، كخصى وخصيان . آناء الليل جمع إنَا ، بالقصر كمعى . وقيل إنى كقرد ، وقيل إنوة كفِرْقة . الصَّيَاصى جمع صِيصية . منْسأة جمع مناسىء الحَرور جمعه حُرور بالضم . غَرَابيب جمعه غِربيب . أتراب جمع ترب . الألَاء : جمع إلَى كمعى ، وقيل أَلَى كقَفَا . وقيل إلْى كقِرْد ، وقيل ألو . التراقى جمع تَرْقُوة بفتح أوله . الأمشاج جمع مَشِج . ألفافا جمع لِفّ ــ بالكسر . العِشار جمع عُشر . الخُنَّس جمع خانسة ، وكذا الكنَّس . الزبانية جمع زبنية . وقيل زاين . وقيل زبانى . أشتاتا جمع شتّ وشتيت . أَبابيل لا واحد له ، وقيل واحدة إبّوْل مثل عِجَّول . وقيل إبّيل مثل إكليل .

فائـــدة

ليس فى القرآن من الألفاظ المعدولة إلا ألفاظ العدد : مثنى ، وثلاث ورُباع ، ومن غيرها طُوى فيما ذكره الأخفش فى الكتاب المذكور . ومن الصفـــات أُخـــر ، قال تعـــالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾[1] . قال الراغب[2] وغيره : هى معدولة عن تقدير مافيه الألف واللام ؛ وليس له نظير فى كلامهم ؛ فإن « أفعل » إما أن يذكر معه « من » لفظاً أو تقديراً ، فلا يُثَنَّى ولا يجمع ، ولا يؤنث ، أو يحذف منه « من » فتدخل عليه الألف واللام [ويثنى ويجمع ، وهذه اللفظة من بين أخواتها جُوز فيها ذلك من غير الألف واللام[3]] .

وقال الكرمانى فى الآية المذكورة : لا يمنع كونها معدولة من الألف واللام كونها وصفاً لنكرة ؛ لأن ذلك مقدر من وَجْهٍ غير مقدر من وَجْه .

قاعـــدة

مقابلة الجَمع بالجمع تارة تقتضى مقابلةَ كلّ فرد من هذا بكل فرد من هذا ، كقوله : ﴿ واسْتَغْشَـوْا ثِيَابَهم ﴾[4] ، أى استغشى كلُّ منهم

---

(١) ال عمران : ٧ — (٢) المفردات : ١ ـ ١٣

(٣) من الاتفاق ، والمفردات — (٤) نوح : ٧

ثوبه . ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾[1] ؛ أى على كل من المخاطبين أمّـــة . ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾[2] ؛ أى كل فى أولاده .
﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾[3] ؛ أى كلّ واحـدة تُرضِـع ولدها .

وتارة يقتضى ثبوتَ الجمع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه ؛ نحو : ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾[4] . وجعل منـه الشيـخ عز الديـن بن عبد السلام : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾[5]

وتارة يحتمل الأمرين ، فيحتاج إلى دليل يعيِّنُ أحدهما .

وأما مقابلة الجمع بالمفرد فالغالبُ ألا يقتضى تعميم المفرد ، وقد يقتضيه كما فى قوله : ﴿ وعَلى الَّذين يُطيقونه فِدْية طعامُ مِسْكِين ﴾[6] المعنى على كلّ واحدٍ لكل يوم طعام مسكين . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجْلِدُوهم ثمانين جَلْدَةً ﴾[7] لأنه على كل واحد منهم ذلك .

---

(1) النساء : ٢٣
(2) النساء : ١١
(3) البقرة : ٢٣٣
(4) النور : ٤
(5) البقرة : ٢٥
(6) البقرة : ١٨٤ هذا منسوخ بقوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ١٨٥ . راجع جامع البيان (٣/٤٣٤) والدر المنثور للمؤلف (١/١٧٧) والناسخ والمنسوخ للنحاس (٢١)
(7) النور : ٤

قاعـدة

ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه

من ذلك الخوف والخشية ؛ لا يكادُ اللغوى يفرِّق بينهما ، ولا شكَّ أَنَّ الخشية أَعْلَى منه ، وهى أشدُّ الخوف ، فإنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية ؛ أى يابسة ، وهو فوات بالكلية . والخوف من قولهم ناقة خَوْفاء ؛ أى بها داء وهو نَقْص ، وليست بفوات ؛ ولذلك خصت الخشيةُ بالله فى قوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

وفُرِق بينهما أيضا بأنَّ الخشية تكون من عظم المختشى ، وإن كان الخاشى قويًّا ، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً . ويدلُّ لذلك أنّ الخاء والشين والياء فى تقاليبها تدُلّ على العظمة ، نحو : شيخ للسيد الكبير . وخيش لما غَلُظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالبا فى حقِّ الله ؛ ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[2] . ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3] . وأمـا ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن

(١) الرعد : ٢١ (٢) البقرة : ٧٤

(٣) فاطر : ٢٨ راجع تفسير الطبرى (٨٦/٢٢ ، ٨٧) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٣٤٢/١٤ ، ٣٤٣) والبحر المحيط لأبى حيان (٣١١/٧) وما بعدها .

﴿فَوْقِهِمْ﴾(١) ــ ففيه نكتة لطيفة ، لأنه وصف الملائكة ، ولما ذكر قوتهم وشدة خلقهم عبَّر عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظا شدادا فهم بين يديه تعالى ضعفاء ؛ ثم أردفهُ بالفوقية الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين . ولما كان ضَعْف البشر معلوما لم يحتج إلى التنبيه عليه .

ومن ذلك الشح والبخل . والشحُّ هو أشدُّ البخل . قال الراغب : الشح : بخل مع حِرْص . وفرَّق العسكريُّ بين البخل والضَّنِّ بأن الضن أصله أن يكون بالعَوَارى ، والبُخْل بالهبات ، ولهذا يقال : هو ضنين بعلمه ، ولا يقال بخيل ؛ لأنَّ العلم بالعارية أشبه بالهِبة ؛ لأن الواهب إذا وهب شيئاً خرج عن مِلْكه ، بخلاف العارية ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾(٢) ولم يَقُل ببخيل .

ومن ذلك السبيل والطريق ، والأولُ أغلب وقوعاً فى الخير ، ولا يكاد اسمُ الطريق يُرَادُ به الخير إلا مقترناً بوصْفٍ أو إضافة تخلِّصه لذلك ، كقوله تعالى : ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣) .

---

(١) النحل : ٥٠

(٢) التكوير : ٢٤ الضنين : فى لغة العرب البخيل ، ولكن هنا أريد بها هنا الظنين (بمهتم) على ما يخبر به عن الله عز وجل .
ومن قرأ بضنين : أراد ببخيل ، أى ليس بخيلًا عليكم ، يعلم ما غاب عنكم مما ينفعكم راجع أقوال العلماء واختلافهم فى القرطبى (٢٤٠/١٩) والطبرى (٥٢/٣٠) والتفسير الكبير للرازى (٣٦٧/٨)

(٣) الأحقاف : ٣٠

وقال الراغب : السبيل الطريق التى فيها سهولة ، فهو أخص .

ومن ذلك جاء وأتى ؛ فالأول يقال فى الجواهر والأعيان . والثانى فى المعانى والأزمان ؛ ولهذا ورد فى قوله : ﴿ولمنْ جاءَ به حِمْلُ بَعِير﴾[1] . ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[2] . ﴿وجىء يومئذ بجهنم﴾[3] . وأتى فى : ﴿أتَى أمْرُ اللَّه﴾[4] ﴿أتَاهَا أمْرُنَا﴾[5] : وأما ﴿وجاء ربك﴾[6] ؛ أى أمره ، فإن المراد به أهوالُ القيامة المشاهدة وكذا ﴿فإذا جاءَ أجَلهم﴾[7] ، لأن الأجل كالشاهد ، ولهذا عُبِّر عنه بالحضور فى قوله : حضره الموت ؛ ولهذا فرق بينهما فى قولـه : ﴿جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾[8] ؛ لأنَّ الأول العذاب ، وهو مشاهد مرئىّ بخلاف الحق . وقال الراغب : الإتيان : مجىء بسهولة ؛ فهو أخصُّ من مطلق المجىء . ومنه قيل للسبل المارّ على وجهه أتاوىّ ، وأتىّ .

ومن ذلك مدّ وأمدّ ؛ قال الراغب . أكثر ماجاء الإمداد فى المحبوب ؛ نحو : ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ﴾[9] . والمدّ فى المكروه ؛ نحو :

---

(١) يوسف : ٧٢
(٢) يوسف : ١٨
(٣) الفجر : ٢٣
(٤) النحل : ١
(٥) يونس : ٢٤
(٦) الفجر : ٢٢
(٧) الأعراف : ٣٤
(٨) الحجر : ٦٣ ، ٦٤
(٩) الطور : ٢٢

﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾[1]

ومن ذلك **سقى وأسقى** ؛ فالأول لما لا كُلفَة فيه ، ولهذا ذكر فى شراب الجنة ؛ نحو : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[2] . والثانى لما فيه كلفة ، ولهذا ذُكر فى الدنيا ، نحو : ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[3] . وقال الراغب : الإسقاء أبلغ من السقى ؛ لأنّ الإسقاء أنْ يجعل له ما يستقى منه ، ويشرب . والسقى أن يعطيه ما يشرب .

ومن ذلك عمل وفعل ؛ فالأول لما كان مع امتداد زمان ؛ نحو : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ ﴾[4] . ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[5] ؛ لأنَّ خلق الأنعام والثمار والزروع بامتداد . والثانى بخلافه ؛ نحو : ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[6] . ﴿كيف فَعَلَ رَبُّك بعاد﴾[7] . ﴿فعلنا بهم﴾[8] ؛ لأنها إهلاكات وقعت من غير بطء . ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[9] ؛ أى فى طرفة عين . ولهذا عبر بالأول فى قوله : ﴿وعَمِلوا الصالحاتِ﴾[10] حيثُ كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة . وبالثانى

---

(١) مريم : ٧٩
(٢) الإنسان : ٢١
(٣) الجن : ١٦
(٤) سبأ : ١٣
(٥) يس : ٧١
(٦) الفيل : ١
(٧) الفجر : ٦
(٨) إبراهيم : ٤٥
(٩) النحل : ٥٠
(١٠) البقرة : ٢٥

في قوله : ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾[1] حيث كان بمعنى سارعوا ، كما قال : ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[3] . وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[2] حيث كان القَصْد يأتون بها على سرعة من غير توانٍ .

ومن ذلك القعود والجلوس[4] ؛ فالأوّل لما فيه لين ، بخلاف الثاني ؛ ولهذا يقال قواعد البيت ، ولا يقال جَوَالسه للزومها ولبثها ، ويقال جليس الملك ولا يقال قَعيده ؛ لأن مجالس الملوك يستحبُّ فيها التخفيف ؛ ولهذا استُعمل الأول في قوله : ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾[5] للإشارة إلى أنه لا زوَالَ له ، بخلاف : ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾[6] ؛ لأنه يجلس فيه زمانا يسيرا .

ومن ذلك التمام والكمال ، وقد اجتمعا في قوله : ﴿**أَكْمَلْتُ لكم دِينَكم وأتمَمْتُ عليكم نِعْمتي**﴾[7] ؛ فقيل الإتمام لإزالة نقصان الأصل ، والإكمال لإزالة نُقْصان العوارض بعد تمام الأصل ؛ ولهذا كان قوله تعالى : ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾[8] أحسن من « تامة » ؛ لأنَّ التمام من العدد قد عُلم ؛ وإنما نفى احتمال نَقْص في صفاتها . وقيل تَمَّ يشعر بحصول نقْص قبله ، وكمل لا يشْعِر بذلك . وقال العسكري :

---

(1) الحج : ٧٧ — (3) البقرة : ١٤٨

(2) المؤمنون : ٤

(4) قال علماء فقه اللغة لا يكون القعود إلا من قيام ولا يكون الجلوس إلا من اضطجاع

(5) القمر : ٥٥ — (6) المجادلة : ١١

(7) المائدة : ٣ — (8) البقرة : ١٩٦

الكمال اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به . والتمامُ اسم للجزء الذى يتم به الموصوف ، ولهذا يقالُ للقافية تمام البيت ، ولا يقال كماله . ويقولون البيت بكماله أى باجتماع .

ومن ذلك الإعطاء والإيتاء ؛ قال الخويى : لا يكاد اللغويون يفرِّقون بينهما ، وظهر لى بينهما فرق ينبىء عن بلاغةِ كتاب الله ؛ وهو أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء فى إثبات مفعوله ؛ لأنَّ الإعطاء له مطاوع ، تقول : أعطانى فعطوتُ ، ولا يقال فى الإيتاء : أتانى فأتيت ؛ وإنما يقال آتانى فأخذت . والفعل الذى له مطاوِع أضعفُ فى إثبات مفعوله من الذى لا مُطَاوع له ، لأنك تقول : قطعته فانقطع ، فيدلُّ على أنَّ فعل الفاعل كان موقوفا على قبولٍ فى المحل ، لولاه ما ثبت المفعول . ولهذا يصح قطعته فما انقطع . ولا يصح فيما لا مطاوعَ له ذلك ؛ فلا يجوز ضربته فانضرب ، أو فما انضرب ، ولا قتلته فانقتل ولا فما انقتل ؛ لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعولُ فى المحل ، والفاعلُ مستقلٌ بالأفعال التى لا مطاوعَ لها ، فالإيتاء أقوى من الإعطاء .

قال : وقد تفكرت فى مواضع من القرآن فوجدتُ ذلك مراعى ؛ قال تعالى : ﴿**تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاء**﴾[1] ؛ لأن الملك شىء عظيم لا يعطاه إلا مَنْ له قوة ، وكذا قوله : ﴿**يُؤْتِى**

---

(١) آل عمران : ٢٦

﴿الحكمة من يشاء﴾(1) . ﴿ءاتينك سبعاً من المثاني﴾(2) ؛ لعظم القرآن وشأنه : وقال : ﴿إنا أعطينك الكوثر﴾(3) ؛ لأنه مورود فى الموقف مُرْتحل عنه قريباً إلى منازل العزّ فى الجنة ، فعبَّر فيه بالإعطاء ؛ لأنه يُترك عن قرب ، وينتقل إلى ماهو أعظم منه . وكذا ، ﴿يعطيك ربك فترضى﴾(4) ، لما فيه من تكرر الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كلَّ الرضا ، وهو مفسر أيضاً بالشفاعة ، وهى نظير الكوثر فى الانتقال بعد قضاءِ الحاجة منه . وكذا ﴿**أعْطَى كلَّ شيء خَلْقه**﴾(5) ، لتكرّر حدوثِ ذلك باعتبار الموجودات ، حتى يعطوا الجِزْية ، لأنها موقوفة على قبولٍ منّا ، وإنما يعطونها عن كُرْه .

فائـــدة

قال الراغب : خصٍ دفع الصدقة فى القرآن بالإيتاء ، نحو : ﴿وأقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة﴾(6) ﴿وأقام الصلوة وءاتى الزكوة﴾(7) ؛ قال : وكل موضع ذكر فى وصف الكتاب « اتينا » فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه « أوتوا » ، لأن أوتوا قد يقال إذا أُوتىَ من لم يكن منه قبول ، وآتيناهم يقال فيمنْ كان منه قبول .

---

(1) البقرة : ٢٦٩
(2) الحجر : ٨٧
(3) الكوثر : ١
(4) الضحى : ٥
(5) طه : ٥
(6) البقرة : ٢٧٧
(7) البقرة : ١٧٧

ومن ذلك السَّنَةَ والعام ؛ قال الراغب : الغالب استعمال السَّنَة في الحَوْلِ الذى فيه الشدَّة والجَدْب ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة . والعام ما فيه الرخاء والخصب ؛وبهذا تظهر النكتة فى قوله﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[1] حيث عبر عن المستثنى بالعام ، وعن المستثنى منه بالسنة .

قاعــدة
فى الســؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكونَ مطابقاً للسؤال إذا كان السؤال متوجاً . وقد يعْدَل فى الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان مِنْ حقّ السؤال أن يكونَ كذلك ، ويسميه السكاكى الأسلوب الحكيم . وقد يجىء الجواب أعمَّ من السؤال للحاجة إليه فى السؤال . وقد يجىء أنْقَص لاقتضاء الحال ذلك .

مثال ما عدل عنه قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾[2] . سألوا عن الهلال لِمَ يَبْدو رقيقا مثل الخيط ، ثم يتزايدَ قليلا قليلا حتى يمتلىء ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا ببيان حكمةِ ذلك تنبيها على أن الأهمَّ السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه . كذا قال السكاكى ومَنْ أتى بعده ، واسترسل التفتازانى فى الكلام إلى أن قال : ليسوا ممّن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة .

(١) العنكبوت : ١٤ (٢) البقرة : ١٨٩

وأقول : ليت شعرى من أَيْنَ لهم أنّ السؤال وقع عن غير ما حصل الجوابُ به ! وما المانِعُ من أن يكون إنما وقع عن حكمةِ ذلك ليعلموها ، فإنَّ نَظْمَ الآية محتمل لذلك ، كما أنه محتمل لما قالوه . والجواب ببيانِ الحكمة دليلٌ على ترجيح الاحتمال الذى قُلْناه ، وقرينةٌ تُرْشِدُ إلى ذلك ؛ إذ الأصلُ فى الجواب المطابقة للسؤال ، والخروج عن الأصْلِ يحتاج إلى دليل ، ولم يرد بإسنادٍ لا صحيح ولا غيره أنَّ السؤال وقع عما ذكروه ؛ بل ورد ما يؤيد ما قلناه ، فأخرج ابن جرير ، عن أبى العالية ، قال : بلغنا أنهم قالوا : يارسولَ الله ، لم خلقت الأهِلّة ؟ فأنزل الله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ ، فهذا صريح فى أنهم سألوه عن حكمة ذلك لا عَنْ كيفيته من جهة الهيئة ، ولا يظنّ ذو دِين بالصحابة الذين هم أدقُّ فهما ، وأغزر علما ، أنهم ليسوا ممن يطّلع على دقائق الهيئة بسهولة ، وقد اطلع عليها آحاد العجم الذين أطبق الناس على أنهم أبلد أذهانا من العرب بكثير . هذا لو كان للهيئة أصل معتبر ، فكيف وأكثرها فاسد لا دليل عليه .

وقد صنَّفْت كتابا فى نَقْض أكثر مسائلها بالأدلة الثابتة عن رسول الله ﷺ الذى صعد إلى السماء ورآها عيانا ، وعلم ما حوَتْه من عجائب الملكوت بالمشاهدة ، وأتاه الوَحْى مِنْ خالقها ، ولو كان السؤال وقع عمّا ذكروه لم يمتنع أنْ يجابوا عنه بلفظ يصل إلى أفهامهم ، كما وقع ذلك لما سألوا عن المجرة وغيرها من الملكوتيات .

نعم المثال الصحيح لهذا القسم جواب موسى لفرعون حيث قال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾[1] ؛ لأنه[2] سؤال عن الماهية أو الجنس . ولما كان هذا السؤال فى حقِّ البارى تعالى خطأً ، لأنه لا جنس له ، فيذكر ولا تدرك ذاته ، عدلَ إلى الجواب بالصواب ببيان الوصف المرشد إلى معرفته ؛ ولهذا تعجَّبَ فرعون من عدم مطابقته للسؤال ؛ فقال ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾[3] : أى جوابه الذى لم يطابق السؤال ، فأجاب موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4] المتضمَّن إبطال ما يعتقدونه من ربوبية فرعون نصا ، وإن كان دخل فى الأول ضمنا إغلاظاً ؛ زاد فرعون فى الاستهزاء به ، فلما رآهم موسى لم يتفطنوا أغلظَ فى الثالث بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[5] .

ومثال الزيادة فى الجواب قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾[6] فى جواب ﴿ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[7] . وقول موسى : ﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾[8] فى جواب : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[9] . زاد فى الجواب استلذاذاً بخطاب الله .

---

(١) الشعراء : ٢٣ ، ٢٤
(٢) فى الاتقان : لأن «ما» سؤال
(٣) الشعراء : ٢٥
(٤) الشعراء : ٢٦
(٥) الشعراء : ٢٨
(٦) الأنعام : ٦٤
(٧) الأنعام : ٦٣
(٨) طه : ١٨
(٩) طه : ١٧

وقول قوم إبراهيم : ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [1] فى جواب : ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [2] ؟ زاد فى الجواب إظهاراً للابتهاج بعبادتها والاستمرارِ على مواظبتها ليزداد غيْظ السائل .

ومثال النقص منه قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ [3] فى جواب : ﴿ائْتِ بقرآن غَيْر هذا أو بدِّله﴾ ، أجاب عن التبديل دونَ الاختراع .

قال الزمخشرى [4] : لأن التبديلَ فى إمكان البشر دون الاختراع ، فطوَى ذِكْرَه للتنبيه على أنه سؤال محال . وقال غيره : التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى .

تنبيه

قد يُعْدَل عن الجواب أصلا إذا كان السائِل قَصْده التعنيت ؛ نحو : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [5] ـ قال صاحب الإيضاح : إنما سأل اليهود تعجيزاً أو تغليظاً ؛ إذ كان الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان ، والقرآن ، وعيسى وجبريل ، وملك آخر ، وصنف من الملائكة ، فقصد اليهودُ أنْ يسألوه ، فبأىّ مسمّى أجابهم قالوا : ليس هو ، فجاءهم الجواب مجمَلا ، وكان هذا الإجمال كَيْداً يردُّ به كيدهم .

---

(1) الشعراء : ٧١
(2) الشعراء : ٧٠
(3) يونس : ١٥
(4) الكشاف : ١ ـ ٤١٧
(5) الإسراء : ٨٥

قاعـــدة

قيل أصل الجواب أنْ يُعَادَ فيه نَفسُ السؤال ، ليكون وفْقَه نحو : ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾(٢) ؛ فأنا فى جوابه هو «أنت» فى سؤالهم ، وكذا ﴿أأقْرَرْتُم وأخذْتُم على ذَلكم قَالُوا أقْرَرْنا﴾(٤) ؛ فهذا أصله ؛ ثم إنهم أتوا عِوَض ذلك بحروف الجواب اختصاراً وترك التكرار .

وقد يحذف السؤال ثقةً بفهم السامع بتقديره ؛ نحو : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ؟ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾(٣). فإنه لا يستقيم أن يكونَ السؤال والجواب من واحد ، فتَعيَّن أن يكون «قل الله» جوابَ سؤال ، فكأنهم سألوا لمَّا سمعوا ذلك : مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟

قاعـــدة

الأصل فى الجواب أن يكون مشَاكِلا للسؤال ؛ فإن كان جملة اسمية فينبغى أن يكون الجواب كذلك ، ويجىء كذلك فى الجواب المقدَّر ، إلا ابن مالك قال : قولك زيد ــ فى جواب مَنْ قرأ : إنه من

---

(١) يوسف : ٩٠ (٢) آل عمران : ٨١

(٣) يونس : ٣٤

باب حَذْف الفعل ، على جَعْل الجواب جملة فعلية . قال : وإنما قدرته كذلك لا مبتدأ مع احتماله ، جَرْياً على عادتهم فى الأجوبة إذا قصدوا تمامها ؛ قال تعالى : ﴿مَنْ يُحْيِي العِظامَ وهى رَميم . قُلْ يُحيِيها الذى أنشأها﴾[1] . ﴿ولئن سألْتهم مَنْ خلقَ السموات والأرضَ ليقولنَّ خلقهنَّ العَزِيزُ العَليمُ﴾[2] . ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ؟ قُلْ أُحِلَ لَكُمْ الطَّيِبَاتُ﴾[3] . فلما أتى بالجملة الفعلية مع فواتِ مشاكلة السؤال عُلم أنَّ تقدير الفِعل أولى .

قال ابن الزَّمْلَكَانى فى البرهان : أطلق النحويون القولَ بأن زيدا فى جواب مَنْ قام ؟ فاعل على تقدير قام زيد ، والذى توجبه صناعة علم البيان أنه مبتدأ ، لوجهين :

أحدهما ـ أنه يطَابق الجملةَ المسئول بها فى الاسمية ، كما وقع التطابق فى قوله : ﴿وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكمْ قَالُوا خَيْراً﴾ فى الفعلية ، وإنما لم يَقَع التطابقُ فى قوله : ﴿ماذَا أَنْزَل رَبُّكم ؟ قالوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلين﴾[4] ؛ لأنهم لو طابقوا لكانوا مقرين بالإنزال وهم من الإذعان به على مفاوز .

الثانى ـ أن اللَّبْس لم يقع عند السائل إلا فيمن فعل الفعل ، فوجب أن يتقدم الفاعل فى المعنى ، لأنه متعلَّق غرَضِ السائل . وأما الفعلُ

---

(١) يس : ٧٨ ، ٧٩ (٢) الزخرف : ٩

(٣) المائدة : ٤ (٤) النحل : ٣٠

فمعلوم عنده ، ولاحاجة به إلى السؤال عنه ، فجرى أن يقعَ فى الأواخر التى هى محل التكملات والفَضَلات .

وأشكل على هذا : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[1] ــ فى جواب ﴿أأنْتَ فعلْتَ هَذَا﴾[2] ؟ فإن السؤال وقع عن الفاعل لاعن الفعل ، فإنهم لم يستفهموه عن الكسر ، بل عن الكاسر ، ومع ذلك صدر الجواب بالفعل .

وأجيب بأن الجوابَ مقدرٌ دلَّ عليه السياق ، إذ «بل» لا يصلح أن يصدر بها الكلام ، والتقدير : ما فعلته ، بل فعله .

قال الشيخ عبد القاهر : وحيث كان السؤال ملفوظاً به فالأكثرُ تَرْكُ الفعلِ فى الجواب والاقتصارُ على الاسمِ وحده ، وحيث كان مضمرا فالأكثر التصريح به لضعف الدلالة عليه . ومن غير الأكثر : ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ﴾[3] ــ فى قراءة البناء للمفعول .

---

(١) الأنبياء : ٦٣

(٢) الأنبياء : ٦٢

(٣) النور : ٣٦ ، ٣٧ ، وقراءة حفص : يسبح ــ بكسر الباء

قاعـــدة

أخرج البزار عن ابن عباس ، قال : مارأيتُ قوماً خيراً من أصحابِ محمد ، ماسألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة ، كلُّها فى القرآن .

وأورده الإمام الرازى بلفظ أربعة عشر حرفا . وقال : منها ثمانية فى البقـرة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾[1] ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾[2] . ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم ﴾[3] . ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾[4] . ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[5] . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾[6] . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[7] . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[8] . قال : والتاسع : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾[9] فى المائـدة . والعـاشر : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَـالِ﴾[10] . والحادى عشر : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

---

(١) البقرة : ١٨٦ — (٢) البقرة : ١٨٩

(٣) البقرة : ٢١٥ — (٤) البقرة : ٢١٧

(٥) البقرة : ٢١٩ — (٦) البقرة : ٢٢٠

(٧) البقرة : ٢١٩ — (٨) البقرة : ٢٢٢

(٩) المائدة : ٤ — (١٠) الأنفال : ١

ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[11] والثانى عشر : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾[12] . والثالث عشر : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[13] والرابع عشر : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾[14] .

قلت : السائل عن الروح ، وذى القَرْنين مشركو مكة أو اليهود ، كما فى أسباب النزول لا الصحابة ، فالخالص اثنا عشر كما صحت به الرواية .

فائـــدة

قال الراغب : السؤال إذا كان للتعريف تعدَّى إلى المفعول الثانى ؛ تارةً بنفسه ، وتارة بعن ، وهو أكثر ، نحو ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[15] وإذا كان لاستدعاء مالٍ فإنه يعدَّى بنفسه أو بمن ، وبنفسه أكثر ؛ نحو : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾[16]. ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ ﴾[17] . ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[18].

---

(١١) النازعات : ٤٢
(١٢) طه : ١٠٥
(١٣) الإسراء : ٨٥
(١٤) الكهف : ٨٣
(١٥) الإسراء : ٨٥
(١٦) الأحزاب : ٥٣
(١٧) الممتحنة : ١٠
(١٨) النساء : ٣٢

قاعـــدة

فى الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسمُ يدلُّ على الثبوت والاستمرار ، والفعلُ يدلُّ على التجدد والحدوث ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر ؛ فمن ذلك : قوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[1] ، لو قيل «يبسط» لم يؤد الغرض ، لانه يؤذن بمزاولة الكلب البَسْـط ، وأنه يتجدد له شيئاً بعد شيء ، فباسط أشعر بثبوت الصفة . وقوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴾[2] ، لو قيل : رازقكم لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئاً بعد شيء ؛ ولهذا جاء الفعل[3] فى صورة المضارع ، مع أنَّ العامل الذى يفيده ماضٍ ؛ نحو : ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾[4] ؛ إذ المراد أنْ يفيد صورة ماهم عليه وقتَ المجيء ، وأنهم آخذون فى البكاء يجدِّدونه شيئا بعد شيء ، وهو المسمّى حكاية الحال الماضية ، وهذا هو سر الإعراض عن اسم الفاعل والمفعول ؛ ولهذا أيضا عبَّر بالذين ينفقون ، ولم يقل المنفقون ، كما قيل

---

(١) الكهف : ١٨

(٢) فاطر : ٣

(٣) فى الاتقان (٢ ـ ٣١٧) : جاءت الحال

(٤) يوسف : ١٦

المؤمنون والمتّقون ؛ لأنَّ النفقةَ أمر فِعْليّ شأنه الانقطاع والتجدد ، بخلاف الإيمان ، فإن له حقيقةً تقوم بالقلب يدومُ مقتضاها . وكذلك التقوى والإسلام ، والصبر والشكر ، والهدى والضلال ، والعمى والبصر ، كلُّها لها مسمَّيَاتٌ حقيقية أو مجازية تستمرُّ ، وآثار تتجدد وتنقطع ، فجاءت بالاستعمالين .

وقال تعالى فى آية الأنعام : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[1] . قال الإمام فخر الدين : كما كان الاعتناء بإخراج الحيّ من الميت أشدّ أتى فيه بالمضارع ليدلَّ على التجدد ، كما فى قوله : ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[2] .

تنبيهات

الأول : المراد بالتجدد فى الماضى الحصول ، وفى المضارع أنّ من شأنه أنْ يتكرر ويقع مرةً بعد أخرى ، صرح بذلك جماعة منهم الزمخشرى[3] فى قوله : ﴿الله يستهزىء بهم﴾ .

قال الشيخ بهاء الدين السبكى : وبهذا يتَّضِح الجواب عما يذكر من نحو : علم الله كذا ؛ فإنَّ علم الله لا يتجدد ، وكذا سائر الصفات الدائمة التى يستعمل فيها الفعل .

---

(١) الأنعام : ٩٥ (٢) البقرة : ١٥

(٣) الكشاف : ١ ــ ٢٨

وجوابُه أنّ معنى علم الله كذا وقع عِلْمُه فى الزمن الماضى ، ولا يلزم أنه لم يكُنْ قَبْل ذلك ؛ فإن العلم فى زمنٍ ماض أعمّ من المستمر على الدوام قبل ذلك الزمن وبعده وغيره ؛ ولهذا قال تعالى ـ حكاية عن إبراهيم : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾[1] ... الآيات ؛ فأتى بالماضى فى الخلق ، لأنه مفروغ منه ، وبالمضارع فى الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء ، لأنّها متكررةٌ متجدّدة تَقَعُ مرةً أخرى .

الثانى : مضمر الفعل فيما ذُكر كمظْهره ، ولهذا قالوا : إنَّ سلام الخليل أبلغُ من سلام الملائكة حيث : ﴿ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾[2] ؛ فإن نصب سلامًا إنما يكون على إرادة الفعل ؛ أى سلّمنا سلاما . وهذه العبارةُ مؤْذنة بحدوث التسليم منهم ؛ إذ الفعلُ متأخرٌ عن وجود الفاعل ، بخلاف سلام إبراهيم ، فإنه مرتفع بالابتداء فاقتضى الثبوتَ على الإطلاق ، وهو أولى مما يعرض له الثبوت ، فكأنه قَصد أن يحييهم بأحسن مما حيَّوه به .

الثالث : ما ذكرناه من دلالة الاسْم على الثبوت والفعل على التجدد والحدوث هو المشهورُ عند أهلِ البيان ، وقد أنكره أبو المطرف بن عميرة فى كتاب التمويهات على التبيان لابن الزَّمْلَكانى ، وقال : إنه غريب لا مستَند له ؛ فإنَّ الاسْمَ إنما يدل على معناه فقط ، أما كونُه يثبت المعنى للشيء فلا ؛ ثم أورد قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ

(١) الشعراء : ٧٨ ، ٧٩ (٢) هود : ٦٩

ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[1] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[2]

وقال ابن المنير : طريقة العربية تلوين الكلام ، ومجيء الفعلية تارة والاسمية أخرى من غير تكلف لما ذكروه ، وقد رأينا الجملةَ الفعلية تصدر من الأقوياء الخلص اعتماداً على أن المقصود حاصل بدون التأكيد ، نحو : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾[3] ولا شيء بعد ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾[4] وقد جاء التأكيد فى كلام المنافقين ، فقالوا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[5] .

قاعـــدة

فى المصـــدر

قال ابن عطية : سبيلُ الواجباتِ الإتيانُ بالمصدر مرفوعا ؛ كقوله : ﴿ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[6] . ﴿ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[7] . وسبيل المندوبات الإتيانُ به منصوبا ؛ كقوله : ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾[8] ؛ ولهذا اختلفوا : هل كانت الوصية للزوجات واجبة لاختلاف القراءة فى قوله تعالى :

(٢) المؤمنون : ١٥ ، ١٦

(٢) المؤمنون : ٥٧ ، ٥٨ راجع تفسير القرطبى (٣٣٦/١٥)

(٣) آل عمران : ٥٣ — (٤) البقرة : ٢٨٥

(٥) البقرة : ١١ — (٦) البقرة : ٢٢٩

(٧) البقرة : ١٧٨ — (٨) محمد : ٤

﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم ﴾[1] ـ بالرفع والنصب ؟

قال أبو حيان : والأصلُ فى هذه التفرقة قوله تعالى : ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾[2] ؛ فإنَّ الأول مندوب ، والثانى واجب ؛ والنكتةُ فى ذلك أنَّ الجملة الاسمية أوْكد وأثبت من الفعلية .

قاعــدة

فى العطــف

هو ثلاثة أقسام : عطف على اللفظ ، وهو الأصل ؛ وشَرْطُه إمكانُ توجّه العاملِ إلى المعطوف .

وعطف على المحل ، وله شروط ثلاثة :

أحدها إمكانُ ظهورِ ذلك المحلّ فى الفصيح ؛ فلا يجوز مررتُ بزيد وعمراً ، لأنه لا يجوز مررت زيدا .

الثانى ـ أن يكونَ الموضع بحقّ الأصالة ، فلا يجوز : هذا الضارب زيدا وأخيه ؛ لأن الأصل المستوفى لشروط العمل ، والأصل إعماله لا إضافته .

الثالث ـ وجود المحرز ، أى الطالب لذلك المحل ، فلا يجوز إن زيدا وعمرا قاعدان ؛ لأن الطالب لرفع عمرو هو الابتداء ، وقد زال بدخول « إن » .

---

(١) البقرة : ٢٤٠ (٢) هود : ٦٩

وخالف فى هذا الشرط الكسائى مستدلا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾[1] ... الآية وأُجيب بأن خبر «إن» فيها محذوف ، أى مأجورون ، أو آمنون ، ولا تختص مراعاةُ الموضع بأن يكون عامل[2] اللفظ زائدا . وقد أجاز الفارسى فى قوله : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[3] أن يكون يوم القيامة عطفا على محل هذه .

وعطف التوهم ؛ نحو : ليس زيد قائماً ولا قاعدٍ ـ بالخفض ، على تَوهُّم دخول الباء فى الخبر . وشرطُ جوازِه صحةُ دخولِ ذلك العامل المتوهم ، وشرط حُسْنِه كثرةُ دخوله هناك . وقد وقع هذا العطف فى المجرور فى قول زهير[4] :

بَدَا لِيَ أَنى لسْتُ مُدْرِكَ مامضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

وفى المجزوم فى قراءة غير أبى عمرو : ﴿ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾[5] : خرجه الخليلُ وسيبويه على أنه عطف على التوهم ، لأن معنى «لولا أخرتنى فأصدّق» ومعنى أخرنى أصدق واحد . وقراءة قنبل : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾[6] خرجه الفارسى عليه ؛ لأن من الموصولة فيها معنى الشرط . وفى المنصوب فى قراءة

---

(١) المائدة : ٦٩
(٢) فى الاتقان : العامل فى اللفظ
(٣) هود : ٦٠
(٤) ديوانه : ٢٨٧
(٥) المنافقون : ١٠
(٦) يوسف : ٩٠

حمزة وابن عامر : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ ﴾[١] : إنه عطف على معنى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢] ؛ وهو إنا خلقنا الكواكبَ فى السماء الدنيا زينة للسماء .

وقال بعضهم فى قراءة : ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٣] إنه على معنى ودُّوا أنْ تدهن .

وقيل فى قراءة حفص : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ ﴾[٤] ـ بالنصب : إنه عطفٌ على معنى لعلّى أن أبلغ ؛ لأن خبر لعل يقترن بأن كثيراً . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم ﴾[٥] : إنه على تقدير ليبشركم وليذيقكم .

تنبيـــه

ظنَّ ابنُ مالك أن المراد التوهم الغلط ، وليس كذلك ، كما نبّه عليه أبو حيان وابن هشام ، بل هو مقصود[٦] صواب ، والمراد منه

---

(١) الصافات : ٧
(٢) الصافات : ٦
(٣) القلم : ٩
(٤) غافر : ٣٦ ، ٣٧
(٥) الروم : ٤٦
(٦) فى الاتقان : مقصد

عطف على المعنى ، أى جوّز العربىُّ فى ذهنه ملاحظة ذلك المعنى فى المعطوف عليه ، لا أنه غلط فى ذلك ، كان الأدب أنْ يقال فى مثل ذلك فى القرآن : إنه عطف على المعنى .

مسـألة

اختلف فى جواز عطْفِ الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمنعه البيانيُّون وابنُ مالك وابنُ عصفور ، ونقله عن الأكثرين ، وأجازه الصفّار وجماعة مستدلين بقوله تعالى : « وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ[1] » فى سورة البقرة «وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[2] » فى سورة الصف . وقال الزمخشرى[3] فى الأولى : ليس المعتمد بالعطف الأمر حتى يطلب له مشاكل ، بل المرادُ عطف جملة ثواب المؤمنين على جملة ثواب الكافرين . وفى الثانية ــ أن العطف على تؤمنون ، لأنه بمعنى آمنوا . ورُدَّ بأن الخطاب به للمؤمنين . و بـ «بشّر» للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبأنَّ الظاهر فى «يؤمنون» أنه تفسير للتجارة لا طلب ، وقال السكاكى : الأمران معطوفان على « قل » مقدره قبل يٰأيها ، وحَذْف القولِ كثير .

---

(١) البقرة : ٢٥ (٢) الصف : ١٣

(٣) الكشاف : ١ ــ ٤٢

مســـألة

اختلف فى جواز عطف الاسمية على الفعلية وعكسه ، فالجمهور على الجواز ، وبعضُهم على المنع ، ولقد لهج به الرازى فى تفسيره كثيرا ، وردَّ به على الحنفية القائلين بتحريم أكل متروك التسمية أخذاً من قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ »[1] . فقال : هى حجة للجواز لا للحرمة ، وذلك أن الواو ليست عاطفة لتخالف الجملتين بالاسمية والفعلية ، ولا للاستئناف ، لأن أصل الواو أن تربط ما بعدها بما قبلها ، فبقى أن تكون للحال ، فتكون جملةُ الحال مقيدة للنهى . والمعنى : لا تأكلوا منه فى حال كونه فسقا . ومفهومه جوازُ الأكل إذا لم يكن فسقا ، والفسقُ قد فسَّره الله تعالى بقوله : « أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ »[2] . فالمعنى لا تأكلوا منه إذا سُمِّىَ عليه غَيْرُ الله . ومفهومه : فكلوا منه إذا لم يسمّ عليه غَيْرُ الله تعالى . قال ابن هشام : ولو أبطل العطف بتخالف الجملتين بالإنشاء والخبر لكان صوابا .

---

(١) الأنعام : ١٢١

(٢) الأنعام : ١٤٥

مسألة

اختلف فى جواز العطف على معمولى عاملين ، فالمشهور عن سيبويه المنع ، وبه قال المبرد وابن السراج وابن هشام . وجوّزه الأخفش والكسائى والزجاج . وخرج عليه قوله تعالى : « إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .[1] » إلى قوله : « وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ـ فيمن نصب آيات الأخيرة .

مسألة

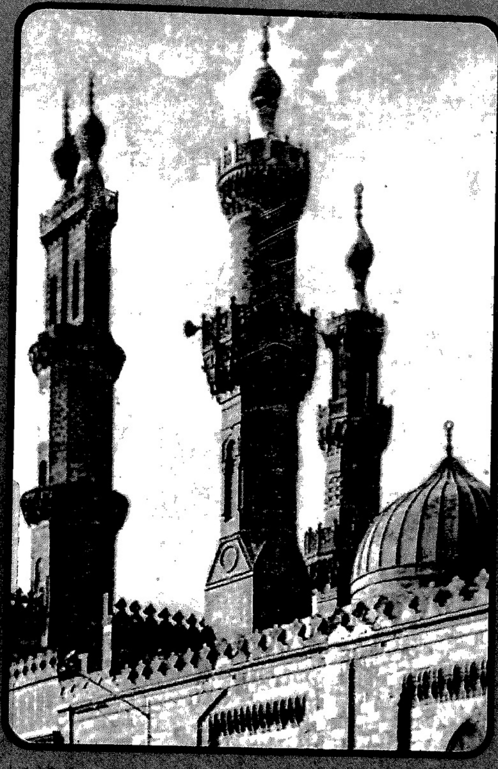
اختلف فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، فالجمهور من البصريين على المنع ، وبعضهم والكوفيون على الجواز ، وخرج عليه قراءة حمزة : « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامِ »[2] وقال أبوحيان فى قوله : « وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام » : إن المسجد معطوف على ضمير به ، وإن لم يعد الجار قال : والذى نختاره جواز ذلك ، لوروده فى كلام العرب كثيرا نظما ونثرا ، قال : ولسنا مبتدعين باتباع جمهور البصريين ، بل نتبع الدليل . والله الموفق .

---

(١) الجاثيـة : ٣ ـ ٥ (٢) النساء : ١

الفهـــــــرس

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية



مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية